مزامير الماء

رواية

عنوان الكتاب : مزامير الماء
المؤلف : ذياب فهد الطائي
التصنيف : رواية
الطبعة : الأولى/ ٢٠٢٥
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي وتصميم الغلاف: فلاح العيساوي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٠٠٠٠) لسنة ٢٠٢٥م

ISBN : 978-9922-8171-0-1

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤ / ٠٧٨٧١٩٧٨٥٢٠
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

ذياب فهد الطائي

مزامير الماء

رواية

٢٠٢٥

٨١٣ / ٩٠٥٦٣
خ ٠٠٠ الطائي ، ذياب فهد
مزامير الماء / ذياب فهد الطائي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٥ .
٢١٣ ص ، ١٤ × ٢١ سم .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع
٠٠٠٠ / ٢٠٢٥

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٠٠٠٠) لسنة ٢٠٢٥م

الفصل الأول

قرية آلبو هيّال تبعد عن ضفافِ هور الحمارِ أكثر من ثلاثمائة متر تقريبًا، وهي قرية عائلية، سكانُها من صُلب (هيّال العرباوي)، وهو الجد السابع لي وفق ما هو مثبت في شجرة العائلة التي يحتفظ بها، في حوالي مائة وخمسة وسبعين دارًا.

بنى (هيّال) القرية في منتصف القرن الثامن عشر، هو وأولاده السبعة وبناته الثلاث، حتى الصغيرة "هدية" كانت تجلب الماء بإناء صغير وتجمعه في سطل بالقرب من العاملين.

كان جدنا (هيّال) يملكُ رؤيةً في عملية إنشاء القرية؛ بنى الدورَ الثمانية الأولى على شكل دائرة لها ثلاثة مداخل. كان البناء من الطين الممزوجِ بالتبن الذي كان يشتريه من مزارعي الحنطة عند عملية (الحصاد)، أما السقوف فقد كانت من (الحصران) المصنوعة من القصب، تغطيها طبقة من الطين الممزوج بكمية كبيرة من التبن، وذلك لمنع تسرب ماء الأمطار الشحيحة.

وفي توسعها بعده حافظت على ذات الشكل الهندسي في العمارة وفي الشكل العام.

اعتمد جدنا هيّال على صيد السمك والطيور المهاجرة، وكان يرسل اثنين من أبنائه لبيع (ما يتوفر) يوميا في (عكد الهوى)، ينقله بمشحوف اشتراه من أحد سكان الأهوار.

لم يحتج سكان الأهوار على ما فعله جدنا، بل كانوا متعاونين معه، وساعدوه على تعلم قيادة المشحوف عند عملية الصيد، وهذا سهل عملية زواج جداتي الثلاث.

ومن الملفت للنظر أن الأجداد والجدات الأُول تزوجوا جميعًا من خارج محيط العائلة، فقد تزوجن من عشيرة نصر السواري قبل أن ترحل إلى المشخاب. كانت العشيرة تضم مجموعةً متناثرةً من تجمعات سكنية تتوزع على امتداد الجهة الجنوبية الغربية وحتى منطقة الفهود، وكانت تلك الزيجات قد وفرت لجدنا وأبنائه حمايةً سهلت عليه الاهتمام ببناء القرية واستصلاح منطقة مناسبة حولها لزراعتها بالحنطة، ولكن الأجيال اللاحقة حصرت الزواج بالعائلة،.

وحرص جدنا هيّال على وضع قاعدة لرئاسة العائلة، حيث جعلها لأكبر الأحياء في حالة موت الرئيس، وبهذا لم تكن وراثيةً.

والملاحظة الثانية أن جدنا والعائلة لاحقًا لم يعملوا في تربية الجاموس الذي كان يستريح منذ الصباح في مساحات شاسعة من الأهوار، كما لم يحاولوا تقليد سكان الأهوار بالبناء وسط المسطحات المائية.

ومن الروايات التي سمعتها أن قرية (آلبو هيّال) تعرضت أكثر من مرة إلى هجوم من لصوص أو قطاع طرق، ولكنها استطاعت طردهم، وأن طريقة بنائها ساعدتهم في الدفاع عنها.

حين تحولت الأهوار إلى ملاذ لمعارضي الحكومة في بغداد، تعامل معهم السكان بالكثير من التعاطف. وأذكر أن أبي جاءنا برجل جريح حين كنت في السادسة، وكان ذلك في عام ١٩٤٢، كان يختلف عنا في ملابسه كما إنه يتحدث بلكنة غريبة. قال: نحارب الحكومة في بغداد، ظل عندنا أسبوعًا ثم غادر.

ومرةً شاهدت ضابطاً إنكليزياً على حصانٍ أدهمِ اللون، وعلى رأس الضابط خوذةٌ عليها شاهد من الصلب، وبيده خيزرانة رفيعة يلوّح بها، وخلفه كان عدد من الجنود كانوا قد ترجلوا من سيارة عسكرية بمقدمة تشبه وجه كلب "عبد السادة" الذي يربطه بسلسلة

حديدية، فيما يقبع على رجليه الخلفيتين متحفزًا بأنفه الأفطس وعينيه الواسعتين المتوعدتين.

كان الضابط ناصع البياض، فيما الجنود سود السحنات، وفكرت ربما قاموا بطلائهم للتخفي. قابل الضابط والدي الشيخ "عبد السلام الهيّال". كنت مأخوذًا بالمنظر، أتطلع وأتابع فاتحًا فمي. كان الضابط يسأل أبي بلغة عربية مضحكة، حتى إن أختي الأصغر مني هربت وهي تنادي أمها:

- هذا (مسطور) وكذاب

فيما كنت أفكر: كيف لا يعرف الكلام مثلنا؟ في تصوري أن العالم هو الأهوار والناصرية التي زرتها مع أبي مرتين

جلست على الأرض بالقرب من أبي، ابتسم الضابط وقدم لي ثلاث قطع من البسكويت، ترددت في أخذها، ولكنه ظل مادا يده. قال أبي:

- خذها.

كان أبي بعد أن تسلم مشيخة العائلة يفكر بفتح مدرسة ابتدائية، ولكن "المعارف" لم توافق لعدم توفر الكادر والتخصيصات. وحين شكا الأمر إلى العائلة في المضيف، قال أحد الحاضرين:

- لنبدأ أولًا بتعليم القرآن.

- ولكن من يعلمهم؟ نحن لا نعرف إلا بعض السور.

قال أبي: سأفاتح "عبد الكريم" ليساعدنا.

كان "عبد الكريم"... عمي الذي ترك القرية وسكن في الناصرية وفتح مطعمًا لاقى الكثير من النجاح، لذا فقد تزوج امرأةً ثانيةً (حضريةً).

اشترط معلم القرآن أن يتم بناء دار له وأن تدفع له القرية (٢٥٠) فلسًا يوميا يستلمها كل أسبوع.

وهكذا كنت أول تلميذ في بيت "مهودر الأحول"، وكان هو أول غريب يسكن معنا... كانت امرأته تطلب من الفتيات كنس الدار كل صباح، ومنا نحن الصبية إحضار بعض الطعام أو السمك، وطبعًا يفضل لحم (الخضيري).

لقد أحببت الدراسة، وكنت أحضر قبل الجميع وأجلس أراجع درسي::

لا يفوتني أن أقول إن قراءة القرآن عند مهودر كانت معقدةً بعض الشيء، إذ كنا نردد الكلمة أربع أو خمس مرات:

"الحمد لله... ألف لام حاء... الحم... د... بيش دو الحمد"، وتستمر هذه القراءة حتى سورة "ياسين"، حيث نقرأ بصورة عادية.

كان أبي كبير القرية عمرًا، طويل القامة، ممتلئًا، على خده الأسمر أثر جرح قديم. كنت حين أفكر أتصور أنه خاض معركةً شرسةً مع مجموعة، وأنه دفعهم إلى الهرب وظل أثر الجرح تأكيدًا لشجاعته. يضع بندقيةً على كتفه حين يذهب إلى الناصرية، وكان الجميع يهابونه، فيما يظل هو حين يلتقي بأحد ما ينصت إليه وقليلًا ما يتكلم، وعادةً حين يصدر أمرًا.

أنا أصغر إخوتي، ولهذا كانت عندي حقوق أكثر من الآخرين؛ فأنا الوحيد الذي يحق له النوم حتى ترتفع الشمس فوق سياج سطح بيتنا، والوحيد الذي يحق له أن يبقى مع بنات القرية اللواتي يَزُرنَ أمي، أشرب الشاي وآكل حلوى الطحين بالسكر.

في الصباح، وقبل أن أذهب إلى متابعة درسي عند "مهودر"، أقف أتابع تحرك قطعان الجاموس وهي تتقدم نحو الهور بتؤدة، فيما تصدر خوارًا بالتتابع وكأنها تؤكد حضورها. وحين تبدأ الدخول إلى الماء تبدو عليها سكينة، ولم أشاهدها يومًا تتنازع المكان. يراقبها صبيان

بيد كل منهما عصًا قصيرة، كما كنت أراقبها وهي تعود دون متابعة، وكنت أشعر بالاستغراب أن كل مجموعة تعرف بيت صاحبها.

كان أبي يجلس على الأرض مستندًا إلى وسادة عالية من الصوف، فيما تجلس أمي أمام موقد صغير للشاي. كنت أمام البيت مع بعض الصبية نلعب حين ناداني:

- مبارك أنك وصلت إلى سورة "ياسين."

- الحمد لله. (علي أن أقول إن معلمي "مهودر" كرر علينا أن نقول لأهلنا ذلك).

بدا أبي مسرورًا.

- ألا تحب الذهاب إلى المدرسة؟

- أين؟

- في الناصرية وتسكن عند بيت عمك "عبد الكريم."

قالت أمي: سنزورك كل أسبوع، وفي العطلة تعود للبيت.

بدت لي الفكرة عالمًا جديدًا مليئًا بالغموض، ولكنه يستحق المغامرة.

قال أبي: غدًا سنذهب مع "أبو شاكر."

كان "أبو شاكر" ثاني غريب يسكن قريتنا. يملك سيارةً هيكلها من الخشب، ومقدمتها معدنية تلمع زرقاء، أما الجانب الخلفي فمعدني أيضًا ولكنه أسود اللون.

كنت أشاهده أحيانًا يقوم بتشغيلها (بالهندر) الذي يدير به محرك السيارة، وقد يكرر المحاولة مرات عدةً.

جاء قريتنا عصر يوم لاهب، أوقف السيارة في المدخل الشمالي للقرية وتقدم نحو المضيف. لم يكن غيري مع أبي الذي كان مسترخيًا يدخن لفافة تبغ يعملها بنفسه. كان الدخان الكثيف المندفع من فمه يغريني بالتجربة، ولكني كنت أخاف الإفصاح عن ذلك. وعند "وجاق" النار كان أحدهم يعالج القهوة.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

ظل "أبو شاكر" واقفًا.

قال أبي: تفضل.

جلس إلى جوار موقد النار. أمر أبي بتقديم القهوة.

قال: طويل العمر... أنا "أبو شاكر" من الناصرية ومن "بني مالك" تحديدًا. أملك سيارة نقل من مناطق الأهوار إلى المدينة. توفيت زوجتي وأنا وابني نأتي كل صباح لننقل بعض الصيادين والمزارعين ونعود بهم ظهرًا...

قال أبي مقاطعًا: أعرف هذا... ولكن ماذا تريد مني؟

قال بلهجة مترددة: أن أسكن معكم.

قال أبي: ولماذا معنا، والمنطقة على امتداد الهور فيها قرًى كثيرة؟

- من معرفتي بالجميع بحكم تعاملي معهم وجدت أنكم أقرب لي.

كنت أنصت باستغراب.

قال أبي: أعطني فرصةً لعرض الموضوع على أصحابي، وغدًا أرد عليك.

وهكذا سكن في قرية "آلبو هيّال."

ليلتها، وأنا أفكر بالمدرسة، كانت أحلامي مغامرات، أتنقل طائرًا بين مزارع وبساتين وأنهار تجري بسرعة، يتدفق ماؤها غرينيا ويستقر في الهور..

بدت المدرسة، وأنا أتقدم مع عمي عبد الكريم إلى المبنى، عالمًا سحريا. الطلاب يركضون في ساحة مكشوفة، يعبرون عن روح مرحة منطلقة. فكرت: سأكون جزءًا من هذا المشهد.

عصرًا، اشترى لي عمي بنطالًا من قماش بني، وحذاءً من الجلد، وزوجين من الجوارب، وثلاثة قمص بيضاء. قال:

- غدًا ستذهب إلى المدرسة أفندي.

لم أسأله ما يعني ذلك.

في اليوم الثاني، كنت أجلس على صخرة عند بئر وسط الساحة الترابية، أتطلع إلى قفص كبير فيه ثلاثة غزلان. كان أحدها صغيرًا، ويقف قبالتي تلميذ يحدق بي. فكرت أنه يجدني غريبًا.

- قم، أريد أن أجلس أنا.

كان صبيا نحيفًا، بوجه متجهم، ولهجة متعالية.

قلت له: يمكن أن تجلس جنبي.

قال: أنا لا أجلس مع "المعدان."

عرفت أنه يشتمني، ولكني حاولت تجاوز ذلك. فجأةً لكزني بحذائه. شعرت بغضب شديد، فأمسكته من كتفيه ورفعته لأرميه في البئر. اندفع عدد من التلاميذ نحوي وهم يصرخون.

قال المدير: لماذا فعلت ذلك؟

حاولت تبرير فعلتي، وكان التلميذ الآخر يقف وهو ما يزال مشدوهًا.

قال المدير: افتح يديك.

تلقيت ثلاث ضربات موجعة على كل كف، ولكني كتمت ألمي. ثم توجه إلى التلميذ الآخر وأسمعه تقريعًا لاذعًا.

في الساحة، كنت أرى في نظرات التلاميذ شيئًا من الخشية والحذر. وفي الحقيقة أعجبني ذلك.

في الصف، كان مرشد الصف - كما عرف نفسه - يوزع علينا القراءة. كان كتيبًا أنيقًا له رائحة خاصة... تصفحته بسرعة. كانت البداية مضحكةً:

"أ... ب... ج... دار."

في الصفحة الأخيرة، كان موضوعًا عن "هشام". قرأته بسرعة ورفعت يدي.

قال المعلم: ماذا؟

قلت: هل أقرأ "هشام"؟

تقدم نحوي وأمرني بالوقوف. كان الجميع يتطلعون إلي بإشفاق ممتزج بالتشفي.

قال: افتح يدك.

ضربني بالمسطرة. شعرت بالمهانة. قال: اجلس.

كانت عيناي مغرورقتين بالدمع، ولكني لم أبك. لاحظت أن المعلم يرمقني بين الفينة والأخرى. وقبل نهاية الدرس، توجه نحوي وسأل:

- هل أنت راسب من العام الماضي؟

قلت: لا.

قال: اقرأ إذًا.

بدأت أقرأ بذات الطريقة التي تعلمتها عند مهودر في قراءة القرآن.

فضحك المعلم.

الفصل الثاني

في القرية روايات مختلفة عن هيّال سعدون العرباوي، بعضها مبالغ فيه، وبعضها تكون كسرد تتزايد صفحاته بتوارثه عبر سبعة أجيال.

فكر جواد بن الشيخ عبد السلام بأن يجمع هذا التراث ويراجعه مع أبيه وعدد من شيوخ قرية آل هيّال، وكان في السنة الدراسية الأخيرة من دراسته الثانوية. ومما شجعه على ذلك نجاحه في نشر بعض القصص القصيرة في مجلات أدبية تناولها بعض النقاد بالدراسة، وعموماً كانت تلك الدراسات مشجعةً.

ولكنه وجد أن موضوع جمع تلك الروايات ودراستها كبير، ويحتاج إلى جهود لا يمكنه توفيرها، سيما وهو يفكر بالتفوق للحصول على بعثة إلى إنكلترا. وهكذا ترك الموضوع.

في بيت عمه عبد الكريم كان الجميع يقدمون له العون، وقد تولت ابنة عمه الصغرى الاهتمام بغرفته في أعلى الدرج المفضي إلى السطح، وكانت زوجة عمه تتولى إعداد الطعام سائلةً إياه عما يحب قبل أن يتوجه إلى المدرسة. وقد دفعه هذا التصرف إلى أن يفكر، وهو

يغسل وجهه ويتطلع في مرآة المغسلة، بتحضير الجواب المناسب.

تجمع الروايات على أن هيّال بن سعدون بن علي بن عرباوي كان الابن الوحيد لوالديه اللذين تركاه مبكراً. كان طويل القامة، هادئ الطبع، يملك خبرةً في زراعة الحمضيات، معه دائماً هي الأكثر إنتاجاً. وخلال فترة وجيزة كان يملك عدة بساتين في الطهمازية، ولكن ضعف الحكم العثماني واستمرار تزايد الضرائب وجبايات شيوخ القبائل في المنطقة جعل أرباحه تتآكل. ولكنه لم يفكر لا بترك الزراعة ولا بالهجرة.

كان أولاده السبعة يعاونونه في البساتين وفي التسويق، أما بناته الثلاث وزوجتاه فقد كانوا يهتمون بشؤون البيت الكبير.

في نهار شتوي رائق عاد أبناؤه من سوق الحلة على نحو يوحي بأنهم واجهوا مصاعب سيئةً، فقد أعلنوا أنهم اضطروا إلى ترك البرتقال وبقية البضاعة وهربوا، لأن الجندرمة العثمانية حاصرت السوق وبدأت تجمع الشباب لأخذهم لخدمة السخرة في الجيش العثماني الذي يحارب في أوربا، ومن المعروف أنه لا أحد يعود ثانيةً.

وفي المساء أخبره عبد الرزاق الحسناوي أن الطهمازية ستحاصر ابتداءً من الصباح الباكر لحاجة الجيش العثماني إلى عمال يحفرون الخنادق ويقيمون في بلغاريا السواتر الترابية ولا يتقاضون أجرا عدا الحد الأدنى من الطعام

قال هيّال لزوجته بدرية وهي أم لخمسة أولاد وبنت واحد

- اجمعي كل ما لدينا من ذهب ونقود، وضعيه في صرة، واربطيها إلى وسطك تحت الثوب، على أن تضعي العباءة الصوف وتحزميها.

كانت بدرية تقوم بقلي الباذنجان، فالتفتت إليه قائلةً بدهشة:

- خير إن شاء الله

قال

-خير... سنغادر بعد منتصف الليل-

ثم التفت إلى حميدة زوجته الثانية وقال

-عليك أن تجهزي بعض المؤونة للطريق .

سألته حميدة

- هل هي سفرة؟ ومتى نعود؟

أجابها هيّال:

- هي سفرة طويلة، ولكن لن نعود

نهضت من فوق البساط الملون، ونظرت إليه بثقة وقالت:

- لن أذهب معكم... سأعود إلى أهلي

قال بهدوء:

-لا بأس، فالوقت لا يسمح بالنقاش

قالت بإصرار:

- أولادي سيبقون معي

لم يجبها، لكنه تطلع نحوهم متسائلًا، فقالوا بصوت واحد تقريبًا:

- سنذهب مع أبينا.

شعرت بالإحباط، لكنها لم تطلب منهم مراجعة قرارهم.

قال هيّال لأولاده

- سنغادر إلى منطقة الأهوار... هناك أرض يمكن استغلالها، ولا تتعرض لها الجندرمة العثمانية. هناك ستكون عشيرتنا القادمة. الأمر يحتاج إلى الصبر والجهد والكثير من القوة

قال حمزة، وهو الابن الأكبر:

- نحن معك يا أبي.

فأومأ الآخرون بالموافقة.

قال هيّال

- على بركة الله... حمزة، خذ اثنين من إخوتك وجهزوا الزورق. سنتوجه إلى سدة الهندية، ومنها إلى الفرات باتجاه الأهوار

ثم قال لحميدة

- ستعطيك بدرية ثلاث ليرات ذهب وعشرين قرشًا، ويمكنك أن تبقي في الدار.

سألته:

- والبساتين

قال

"سأرتب موضوعها مع عبد الرزاق.-

قالت معترضةً:

- لا أعتقد أنه موثوق، فأنا أعرفه، إنه من عشيرتي. لماذا لا أكون أنا المعنية بها؟

قال بصرامة:

الموضوع أكبر من قدراتك.-

ترك هيّال عائلته وتوجه إلى بيت عبد الرزاق.

قال له ابن عبد الرزاق:

- أبي في مضيف الشيخ عبد الحسن... هل الموضوع مهم لأستدعيه؟

أجابه هيّال

- نعم، مهم، وسآتي معك

كان عبد الرزاق مستغربًا، فالعادة أن يدخل هيّال المضيف ليسلم على الحاضرين. كما بدا قلقًا لأنه لم يحدث أن استدعاه هيّال في مثل هذا الوقت.

قال عبد الرزاق:

- خير إن شاء الله؟

فأجابه هيّال:

- كل خير... هل ترغب أن نتحدث في بيتك أم في بيتي؟

- لا فرق، ولكن بيتنا الأقرب.

حين استقر بهما المقام في الغرفة المعدة للضيوف، وقبل أن يطلب عبد الرزاق القهوة، قال هيّال

- أنا عجل جدا، وسأدخل في الموضوع مباشرةً... لقد فكرت في الخبر الذي قلته لي، ووجدت أنه من الضروري مغادرة الطهمازية، فلا أنا ولا أولادي نقبل أن نكون عمال سخرة في بلاد لا نعرفها، ونترك نساءنا وحدهن، ولهذا سأغادر الليلة.

قال عبد الرزاق:

- حسنًا، وهذا صحيح، ولكن إلى أين؟

- إلى الأهوار، عند عشائر نصر السواري.

- وأين تقع هذه؟

- في منطقة هور الحمار، من جهة (عكد الهوى).

- لم أفهم.

- ليس مهما... ولكن المنطقة تتبع إمارة المنتفك، ويقودها ناصر بن راشد باشا السعدون.

- وكيف ستصل إلى هناك؟

- بالزورق..... ما جئت من أجله هو وضع بساتيني الثلاث؛ فأنا أرغب في بيعها، لأني سأحتاج إلى بعض المال معي، وقد قررت ألا أعود.

- تعلم أني لا أملك ثمنها، وليس من السهل الحصول على نقد الليلة.

- فكرت في هذا... يمكن أن تعطيني ما هو متوفر لديك، والباقي على التساهيل،.

عدل عبد الرزاق وضع عقاله الذي تحرك نحو اليسار، وقال

- علينا تحديد السعر.

- أنت تعرف جيدًا قيمة بساتيني، كما أني دفعت الضرائب عن العام الماضي.

- هل نقول إن كلا منها بخمسين ليرةً رشادية؟

- لا مانع، مع أن ثمنها أعلى من ذلك... ولكن للضرورة أحكام.

استأذن عبد الرزاق وخرج ليحضر ما لديه. كان يشعر بهزة فرح، فقد حصل على أفضل بساتين الطهمازية، ويعلم الله إن كان سيدفع المتبقي

طلب من زوجته أن تجلب له الصندوق الحديدي.

في الصندوق كانت خمس وعشرون ليرةً ذهبيةً، وقروش لم يحصها، وعدد من البارات.

قالت زوجته:

- كم ستعطيه؟

قال: خمس عشرة ليرةً.

قالت: سيقبل بعشر ليرات، لأنه مستعجل..

قال عبد الرزاق: المعذرة، لم أجد غير عشر ليرات وبعض القروش.

- لا بأس.

قالها هيّال على مضض، ثم أضاف

- ولكن المتبقي بذمتك.

قال عبد الرزاق: طبعًا، والله شاهد على ذلك.

حين استقر كل شيء في القارب، شعر هيّال أنه مثل السندباد الذي كان ملا صافي يقرأ قصصه في رمضان الفائت، يرحل إلى أرض مجهولة تتنازعه رغبة في البقاء، وتدفعه ضرورة قاسية إلى المغادرة.

مع الضربات الأولى للمجاديف، شعر بأنه يمتلك زمام مصيره، وأنه سيبني حياةً جديدةً وفق ما يحلم به.

سينشئ عشيرته، ويفرض نظامًا لأبنائه؛ لن تكون المشيخة العشائرية بالوراثة، بل لأكبر الموجودين، كما سيكون ما يباع من المحصول لكافة أفراد العشيرة بالتساوي.

أعجبه تصوره عن المستقبل، فأغمض عينيه مستقبلًا نداوة المطر الذي بدأ غيثًا متقطعًا.

كان الليل يمتد أمامهم كبحر من ظلال لا شاطئ له، ولا ضوء في آخره.

كان هيّال يمسك بيد زوجته، بينما أربعة من أبنائه على جانبي القارب يمسكون بالأشرعة، والآخرون والبنات يتكورون في قاع القارب.

كان شط الحلة يجري رائقًا تحت سماء حجبتها السحب، والريح الرطبة تحمل رائحة البارود والرماد، كأنها تذكره بكل ما خسره لتوه.

لم يتحدث أحد؛ كان الصمت أثقل من الكلام، والخوف أبلغ من أي كلمة.

كانت عيناه تلتفتان إلى الخلف كأن شيئًا ما هناك لا يريد أن يتركه، ربما بيتهم القديم، أو أشجار البرتقال التي كانوا يجلسون تحتها.

شعر أن ضحكاتهم ما تزال تتردد في أذنه كصدىً بعيد.

قالت زوجته بصوت خافت:

- إلى أين سنذهب؟

لم يجب، شد على يدها قليلًا، كأنما يقول لها: إن النجاة وحدها كافية الآن، وإن السؤال مؤجل حتى إشعار آخر.

كان قلبه يضطرب في صدره، ينبض كطائر مذعور في قفص ضيق.

لم يدر أكان يهرب نحو الأمان أم نحو ضياع آخر، كل ما يعرفه أنه لم يعد يملك رفاهية البقاء.

كـل شـيء خلفـه احتـرق، وكـل مـا أمامـه غـامض ومجهول.

حين اقترب الفجر، طلب رصف القارب إلى الجرف عند بستان يطل بلا سياج على الشط الذي كانت موجاته المتسارعة تضرب الشاطئ.

نظر إلى الأفق؛ كانت الأرض التي تركها تذوب خلف الضـباب ودفقـات مطـر خفيـف، ومعهـا ملامـح حياتـه القديمة تعاوده بين حين واخر.

شعر أن شيئًا في داخله ينكسر بصمت لا يسمعه أحد، تنفس بعمق، كمن يحاول إقناع نفسه أن المضي قدمًا نوع آخر من الشجاعة.

كانت مشاعره تتقاسمها نوبات قلق مؤرق وشحنات توتر تمنعه من الإغفاء.

قال: سيكون نهارنا للنوم، وليلنا للعمل، ففي مثل هذا الجو تتوقف دوريات الجندرمة ليلًا، وتنشط في النهار، لخشيتهم من رجال العشائر الذين أرهقتهم الضرائب، واختطاف الشباب لأعمال السخرة في بلاد لا يعرفون حتى أسماءها.

حين كانوا يتوقفون في جرف الشط عند أحد البساتين، لـم يكـن أحـد ينهـرهم؛ بـل كـانوا يقـدمون لهـم ضـيافةً تدهشهم.

*****

استدار الزورق نحو الفرات، تاركًا شط الحلة، وعليه أن يحكم تفكيره في معالجة ما قد يستجد من مصاعب قبل أن يصل إلى الأهوار.

شـعر بأنـه تحـرر مـن مشـاعره نحـو الطهمازيـة التـي أصبحت خلفه، وتملكه شعور براحة عميقة.

هو الآن يحمل روح التحدي والمغامرة مثل السندباد تمامًا.

في اليوم الرابع، كان في مسطح مائي لا حدود له، ليس فيه غير القصب والبردي، وطيور تتعاقب في الطيران فوق الماء أو تهبط لتستريح وتلتقط بعض صغار السمك التي تتحرك كموجة رمادية تحت الماء الرقراق، في سكون عميق يتكاثف في رحابه.

مسألة لم يفكر بها هيّال... وهي عمق الماء بالقرب من ضفاف الهور، وعدم القدرة على التحرك دون عصًا طويلة تغرس في الماء وتدفع الزورق إلى الأمام، وتسمى عندهم (المردي).

قال ابنه حمزة:

- سأستعمل المجداف، وطوله يكفي مع جهد بسيط.

بقيت معضلة أخرى،، وهي أن عمق الماء لا يسمح بأن يظل الزورق طافيًا بما فيه من حمولة، سيما وهم لا يغامرون بالدخول إلى مناطق عميقة خوفًا من أن يتيهوا في هذه المساحة الشاسعة.

- توقفوا... قال هيّال

- يجب أن ننتظر أحدًا، ربما يمر بالصدفة لنسأله.

قالت بدرية

- عن ماذا؟ هل لك مكان محدد؟

قال:

- نعم، أنا أقصد مسكن البو شامة.

لم يعلق أحد من عائلته، فهم لم يسمعوا بهذا الاسم من قبل.

ومن بعيد لاح زورق عليه رجل بجلابية زرقاء. كان طويل القامة، نحيلًا، ولكنه نشط، يدفع المردي بقوة فينزلق القارب على سطح الماء برشاقة.

قال الرجل:

- السلام عليكم.

قال هيّال:

- وعليكم السلام.

سأل الرجل:

- هل الجماعة تائهين؟

قال هيّال:

- نعم، فإننا لا نعرف أين نتجه.

قال الرجل:

- وإلى أين تتجهون؟

قال هيّال:

- نرغب أن نستقر بالقرب من البو شامة.

قال الرجل:

- ولكن ما بينكم وبين البو شامة مسيرة نهار كامل! هل أنتم من العشيرة؟

قال هيّال:

- لا، ولكننا نفكر أن نسكن بالقرب منهم.

قال الرجل:

- ولماذا ليس مع بني شميس؟

قال هيّال:

- وأين يسكنون؟

قال الرجل

قريبًا، وأنا منهم، وحولنا أراض بور واسعة تملكها إمارة السعدون... ولكن اطمئنوا، فهم لا يحضرون أبدًا، وعادةً ما يحضر ملتزم الضرائب مع ثلة من الجندرمة، وقد رتبنا أمرنا معه بدفع مبلغ نتفق عليه، ويكون عادةً أقل من ربع الضريبة الرسمية. تعلم أن الضريبة كبيرة بحيث لا تترك لنا شيئًا.

في مضيف الشيخ مجبل آل شميس، شعر بشيء من الأمان، فقد كان الرجل الجالس في صدر المضيف يحمل وجهًا بشوشًا سمحًا، تحرك أصابعه حبات مسبحة سوداء عليها نقوش من الفضة. كان يجلس على بساط فوق حصيرة من القصب، يتلفع بعباءة بنية مذهبة الحواشي.

في المضيف كان بضعة رجال أنهوا لتوهم شرب فناجين القهوة، فقد كانت ما تزال بأيديهم.

يا هلًا بالضيف!

- وبالمهلي

- فهمت من عبد الرضا أنك تنوي السكن في أراضينا.

- نعم، طويل العمر.

- ولكن الحياة هنا مختلفة... أنت ستكون بحمايتنا، وهذا يترتب عليه أن تؤدي «الودي» معنا، وأن تقاتل أنت وأولادك معنا.

- أعرف هذا، طويل العمر.

- على بركة الله.

أردف الشيخ مجبل:

- سيقوم حسن بتحديد الأرض، وعليك أن تحفر حولها، بعدها سنساعد في بناء مساكن للعائلة.

قال هيّال:

- الحمد لله، وشكري ودعائي لكم بالتوفيق... سأحفر مع أبنائي حولها، أما البناء فسأتدبره أنا والعائلة، وأكرر شكري لكم، طويل العمر.

كانت السماء صحوًا تزدحم فيها نجوم لم يشاهدها من قبل، وعلى امتداد الأفق أمامه لم يكن غير الماء وغابات من البردي تتمايل برفق مع ريح باردة خفيفة، فيما ينعكس ضوء القمر الفضي على صفحة الماء.

بين آن وآخر كان ينطلق خوار منفرد لجاموسة ربما ضلت طريقها.

ساعده عبد الرضا وأبناؤه في تفريغ القارب الذي ربطه إلى وتد خشبي. توقف الغيث، ولكن الأرض كانت

مشبعةً برطوبة تنز. وضع الحصران على الأرض طبقتين، ثم سجادةً قديمةً، وبعدها بساطًا صوفيا.

في الصباح كانت الشمس تضيء الكون بقليل من الدفء، وكان الجميع نيامًا فقد هدهم العمل طوال النهار بتحريك الزورق.

لم تكن الأيام الأولى سهلةً؛ اشترى التبن وهيأ الطين، وفي صباح رائق وضع أول كتلة من الطين في سياج الدار الأولى.

انشغلت بدرية بإعداد الفطور، وحين جلسوا إلى المائدة أبدوا اندهاشهم: البيض المسلوق، قطع من القيمر، وصحن فيه زبد، وكأسة لبن، وخبز ما يزال حارا... كل ذلك تكفلت به زوجة عبد الرضا:

في الصباح، يأخذ المنظر نموذجًا آخر، حيث على امتداد البصر يمتزج الماء بالطين، وتلتقي الأرض بالسماء في لوحة تملأ العين، تمتد الأهوار كجنة على وجه الصحراء.

هناك، حيث ينساب الضوء على صفحة الماء الهادئة، يعيش الناس في تناغم عجيب مع الطبيعة، كأنهم جزء من هذا السحر الأزلي الذي لا يفنى.

الأهـوار ليسـت مجـرد مكـان، بـل روح مـن المـاء والقصب، وذاكرة وطن عاشق للنقاء.

وجـد هيّـال نفسـه مـأخوذًا، هنـا سـيعيش مـع المـاء والطبيعة، وفكر: حيثما يتدفق الماء تظل الحياة في مسيرة لا تنتهي.

الفصل الثالث

كان الشيخ مجبل آل شميس يجلس أمام المضيف على كرسي من جريد النخل، وعند ظهره وسادة من الصوف.

كان الجميع قد خرجوا بعد تناول القهوة، وصورة القمر المرتعش تنعكس على صفحة الماء أمامه، في سكون مفعم بحنين آخاذ يملأ جوانحه.

طلب من المشتغل على وجار القهوة أن يستدعي فرطوسًا ليعزف على الناي بطريقته العذبة والحزينة، فقد كان ما يملأ ناظريه يجعله يشعر كأن الريح تهمس، والماء يكتب أبياتًا على القصب.

أمامه اتسعت المياه كامتداد لروحه، وحوله تواطأ الصمت مع الفراغ.

لم يكن بحاجة إلى كلمات، فقط إلى ناي يبكي عنه، يروي للحياة ما لم يعد يجد له معنًى.

كان في سكونه حوار صامت بين القلب والماء.

قال الشيخ مجبل:

- جوهر، وأنت تعود أخبر هيّالا أني أريده.

بعد بضع دقائق، كان فرطوس وهيّال أمامه.

يشغله هاجس، ويبدو مهمومًا، تتملكه تساؤلات لم يتوصل إلى جوابها.

في الأشهر الثلاثة المنصرمة، كان يراقب هيّالا وهو يعمل بجهود حثيثة لإكمال بناء البيت، وأحيانًا يترك أولاده يواصلون العمل وينتقل هو إلى تنظيف الأرض التي أكمل وضع حدودها.

كانت تنتشر على مساحتها نباتات العوسج وبعض نباتات الصبار التي تتحمل ملوحة التربة وشح المياه،

كان صوت الناي يخرج من عمق الصمت، كأنه تنهيدة روح ضاقت بما في قلبها من وجع. يتسلل اللحن الحزين بخفة النسيم في ليل ساكن، فيوقظ الذكريات النائمة على ضفاف القلب. كل نغمة فيه تشبه خطوة حنين نحو ماض بعيد، وكل وقفة بين الأنغام تشبه شهقة بكاء مكتوم ،

الناي لا يعزف لحنًا فحسب، بل يروي حكاية الفقد والانتظار، حكاية إنسان جالس في العتمة، يصغي إلى حزنه وهو يتحول إلى موسيقى

لحنًا ينساب برفق، يعشش فوقه حنين حزين،

تذكر هيّال الطهمازية... الأصدقاء... ليالي رمضان، وحكايات السندباد التي كان يقصها ملا حسن

تطلع نحو بيته الذي يقف وحيدًا، يلفه الظلام، ويتراقص من بعيد ضوء شاحب لمصباح يتغذى على الزيت.

توقف فرطوس ليستريح، تولع بالناي منذ صغره؛ ففي العاشرة صنع «المطبق» وهو ناي يعرفه أهالي الأهوار، من قطعتي قصب بطول ثلاثين سنتيمترًا تقريبًا، وبدلًا من القار الذي لم يحصل عليه، صنع مادةً لاصقةً من قمع البامية، وعمل خمسة ثقوب في كل قطعة،

- ينبغي أن تكون فخورًا... البيت موضع إعجابنا، والأرض البور التي تغطيها طبقة ملحية، ما شاء الله، الحنطة أصبحت كصيلًا، ومطرة خفيفة كافية... صحيح أن هذا بتوفيق الله، ولكن لا بد من مشتغل جاد وصاحب خبرة لتكون النتائج بهذا الشكل... المهم، سأتحدث مباشرةً بما أريد

سرح هيّال بنظرة إلى كتل القصب وهي تهتز بفعل رياح شرقية تلامس الماء وتداعب القصب، وفكر أنها مقدمات لا تبعث على الاطمئنان... هل يريد الشيخ مجبل أن يشاركه في الأرض؟

أمر الشيخ مجبل جوهر أن يقدم القهوة، وأخرج لفافة تبغ من علبة ذهبية

- لا... شكرا.

- يبدو أني طولت عليك السالفة. أرغب في أن يتزوج ابني صالح من ابنتك خديجة.

شعر هيّال بالمفاجأة، لكنه تمالك نفسه واعتدل في جلسته المسترخية.

تابع الشيخ مجبل

صالح هو ابني البكر، وهذا يعني أنه الوارث الرسمي لمشيخة آل شميس.

استغرق الإعداد للعرس أسبوعين...

مع أول خيوط الشمس، بدأت الحركة تدب في القرية الصغيرة المقامة على مساحات متباعدة فوق الماء، استعدادًا لعرس صالح.

النساء منذ الصباح الباكر في حركة دؤوبة؛ بعضُهُنَّ يَخبُزْنَ في التنور، وأخريات يُجهّزنَ اللحم والأرز للضيوف.

في الساحة الواسعة أمام المضيف الكبير للشيخ مجبل، فرشت الحصر والمفارش، ووضعت الوسائد الصوفية كمتكئات.

من بعيد، كانت الزغاريد تتعالى من بيت العروس إعلانًا عن بدء مراسم الفرح.

الفتيات يُزيّنَ بعضَهُنَّ بالحناء، والأطفال يركضون في الماء يضحكون ويهتفون: اليوم عرس ابن الشيخ

قبيل الظهر، بدأ الضيوف بالتوافد من القرى المجاورة، وأمام المضيف كانت تصطف عشرات المشاحيف.

كان الرجال يتجمعون في المضيف لتبادل التحية وشرب القهوة العربية، فيما انشغلت النساء بتقديم الطعام في أوان كبيرة.

لم يكن أحد يجلس طويلًا؛ فالجميع يشاركون في الخدمة، وفي الضحك، وفي تجهيز كل ما يلزم.

مع غروب الشمس، بدأ موكب العريس، تصاحبه أصوات إطلاق الرصاص من المسدسات وبنادق البرنو.

خرج صالح محاطًا بأصدقائه وأقاربه، والزغاريد تدوي في الأرجاء. سار الموكب على أنغام الدفوف والمطبق.

في المساء، أضيء المضيف بالفوانيس والشموع الكبيرة، وبدأ فرطوس يعزف لحنًا شجيا، ثم غنى عبد الرضا بصوت عذب:

عليكم من سلام الله..... ورحمة

وحن علي كلب مرة..... ورحمة

إذا رايد أجر أنت..... ورحمة

تعال انطيني بوسةً وحن عليه

تجاوبت صفوف الرجال بحركات منسجمة على الإيقاع، والنساء يُصفقنَ من بعيد ويغنينَ أغاني قديمةً توارثتها الجدات.

كان الجو مليئًا بالضحك والبهجة، ورائحة القهوة والهال تعبق في المكان.

استمر العرس حتى وقت متأخر من الليل، قبل أن يبدأ الناس بالمغادرة وهم يتبادلون الدعوات للعروسين بالسعادة والذرية الصالحة.

ومع هدوء ما بعد منتصف الليل، لم يبق سوى أصوات خافتة لأطفال لم يقتنعوا بأن الفرح قد انتهى.

في اليوم التالي، كان هيّال غير ما قبل العرس؛ كان الناس في منطقة آل شمسي يحترمونه، لكنهم ينظرون إليه كضيف يقيم بين ظهرانيهم، أي إنه غريب.

ولكن بعد زواج ابنته من الشيخ صالح، أصبح من ناس الأهوار، وبدأ التعامل معه يأخذ منحًى أكثر ألفةً ومودةً، حتى إن بعضهم بدأ يدعوه:

كيف حال الخال هيّال؟

فشعر بأنه بدأ يستقر فعلًا.

في مساء دافئ، كان يجلس في فناء الدار يحيط به أبناؤه.

قال بلهجة جادة:

- أفكر بأمر مهم، لكنه يحتاج إلى جهودكم جميعًا.

قالت بدرية باستغراب:

- خير إن شاء الله، يا أبا حمزة.

ابتسم هيّال وقال:

- خير... أكيد خير... أفكر بزواج حمزة.

فقالت بدرية مبتسمةً:

- خبر مفرح

تطلع الجميع نحو حمزة، الذي بدا مرتبكًا كأنه أخذ على حين غرة.

قالت بدرية:

- ولكن، من هي بنت الحلال؟

فأجاب:

- علاهن بنت عبد الرضا

قالوا جميعًا:

-نعم الاختيار

جرى كل شيء بسرعة.

قال هيّال:

-سنبني بيتًا لحمزة وزوجته.

قالت بدرية:

- أوافقك، فنحن ننتظر الأحفاد.

ومع حمل خديجة، قال الشيخ مجبل لجوهر:

- اذهب إلى بيت هيّال وأعلمه أني أحتاجه.

ولما حضر، قال له الشيخ:

أهلًا، تفضل.

كان هيّال مستغربًا من هذه الدعوة المستعجلة.

قال الشيخ مجبل:

- لقد دعوتك لأستشيرك في أمر يلازمني منذ عدت من زيارتي لسوق الشيوخ.

قال هيّال:

- خير إن شاء الله.

تابع الشيخ قائلًا:

- ولكن قبل ذلك، أعلمك بأننا أصبحنا أجدادًا... مبارك علينا، خديجة حامل.

فكر الشيخ مجبل كيف يفتح قلبه ويكشف عما يشغله: عن حاضر يعاني فيه ملًا بلا حدود، وعن مستقبل يفرض مغامرةً غير واضحة النتائج.

كان الصباح يتسلل إلى القرية ببطء كعادته كل يوم، دون رغبة حقيقية في التغيير.

كان الضوء الرمادي ينساب فوق الماء الراكد الذي يشق الطريق بين البيوت الطينية، فيما تتمايل أعواد القصب على ضفتيه بكسل يشبه التنفس الأخير ليوم لم يولد بعد.

كان كل شيء مألوفًا إلى حد الوجع: نفس المشهد، نفس الأصوات، نفس الطين الممزوج برائحة الجاموس.

جلس على حافة الممر الترابي، يراقب الماء كما لو أنه مرآة لروحه؛ رأى نفسه فيه مشوهًا، مضطربًا، بلا ملامح واضحة..

الجاموسة التي تمر أمامه كل صباح ترفع رأسها نحوه للحظة، ثم تعود إلى سيرها البطيء غير مبالية.

حتى الحيوانات هنا تعرف دورها في هذا العرض الممل الذي لا نهاية له.

الناس يعبرون الطريق بأجساد تسير وحدها، كأن أرواحهم استقالت منذ زمن. لا حديث بينهم إلا ما يفرضه الضروري من العيش، ولا نظرات تتبادل سوى تلك المطفأة التي لا تقول شيئًا.

يشعر أنهم مثله تمامًا؛ عالقون في دائرة لا تكسر، دائرة الماء والقصب والطين.

يمد يده إلى الماء فيغمس أصابعه، فيجد برودته تشبه برودة الأيام التي تمر عليه بلا أثر.

يفكر للحظة في الهرب، لكنه لا يعرف إلى أين. كأن حدود القرية تمتد إلى آخر الدنيا، وكأن القصب يحيط بها من كل الجهات كسور من خيبة خضراء.

أغمض عينيه، وتمنى لو أن شيئًا (أي شيء) يحدث ليكسر هذا الصمت الثقيل، هذا التكرار الذي يلتهم قلبه يومًا بعد آخر.

لكن الصباح ظل كما هو، صامتًا، يكرر نفسه بلا كلل، كأنه يختبر صبره على الملل.

كان الشيخ مجبل يحاول أن يهيئ الكلمات قبل أن يتكلم، فهو يعرف أن (هيّالا) الذي خرج من الطهمازية، هو أيضًا خاض مغامرةً لم تكن نتائجها معروفةً.

قال الشيخ مجبل:

– لقد علمت من بعض الشيوخ الذين التقيت بهم أن الأمير منصور السعدون يفكر بالانتقال من سوق الشيوخ إلى منطقة (عكد الهوى)، ليجعل منها دار الإمارة، وفي ذهنه أبو جعفر المنصور.

لهذا بدأ، وبهدوء، بشراء الأراضي على ضفتي الفرات والمملوكة بالطابو العثماني.

أما الأراضي خارج الحدود البلدية فسيتم الاستيلاء عليها.

كان هيّال ينصت بانتظار المعنى من هذا الحديث.

تابع الشيخ مجبل:

- وحتى لا أطول السالفة، أفكر أن أنتقل إلى عكد الهوى، وأشتري قطعًا على النهر، وأستملك أراضي خارج حدود البلدية عن طريق التقدم لشرائها من البلدية العثمانية. وفي تقديري، أنهم سيرحبون بذلك، لأن الدولة العثمانية بحاجة إلى المال الآن، كما سيؤمن ضرائب جديدةً في المستقبل.

- والنتيجة؟

- سأكون من أصحاب المال والمكانة والسلطة.

- طويل العمر، لا أعتقد أني أستطيع أن أقدم لك مشورةً مفيدةً.

- المهم أني أفضيت لك بما يتعبني... وبالمناسبة، سيكون الشيخ في هذه النواحي صالحًا، وأنا على ثقة أنك ستتعاون معه.

فتحت بدرية الباب لهيّال، فشعرت بشيء من الدهشة، فقد كان مأخوذًا، حتى إنه دخل دون كلام، وكأنه لم يرها.

قالت بقلق:

- ماذا حصل؟ لقد بدأت أستشعر الخوف.

قال وهو متردد:

- الشيخ مجبل...

سألته بسرعة:

- ماذا به؟ هل هناك مشكلة مع خديجة؟

أجاب بصوت هادئ:

- لا... خديجة بخير... لقد فاتني أن أخبرك أنها حامل.

ابتسمت أولًا، ثم أطلقت زغرودةً طويلةً، فتراكض نحوهما الأولاد.

الفصل الرابع

السنوات الخمس مرت سريعًا، ولكنها أنتجت بداياتِ الحلم الذي سكن خياله.

كان يجلس مساءً عند حافة المياه، التفت إلى الخلف وتنفس بعمق مستشعرا راحةً عميقةً.

البيت الوحيد الذي بناه أصبح قريةً صغيرةً، ثمانية بيوت متلاصقة تشكل نصف دائرة.

كان حريصًا على أن ينفذ ما كان يحلم به، مع مراعاة بيئة الأهوار والحاجة لضمان إمكانية الدفاع عن عائلته إذا ما تعرضت لهجوم اللصوص أو قطاع الطرق، سيما وأن الدولة العثمانية لم تولِ المنطقة أي اهتمام،

وتركتها لإمارة السعدون، الذين كان جُلَّ اهتمامهم الحصول على العائد المالي عن طريق ملتزم يدفع مقدما ويتولى جباية الضرائب، وتركوا مسألة الأمن لشيوخ المنطقة.

كانت البيوت التي شيدها خلال السنوات الخمس يحيط بها سور بارتفاع ثلاثة أمتار، يبعد عنها نحو خمس عشرة مترا.

في المسافة الخلاء كان صغار العائلة يلعبون... كان أطفال أبنائه وابني خديجة يشكلون فريقا لا يتعب.

يتنقلون من اللعب في المساحة الترابية إلى الهور، حيث يصطادون السمك بعصا من القصب إذ يربطون بها نصلا حادا، ثم يعودون بالسمك للساحة الترابية، حيث يوقدون النار ويشوونه.

شعر هيّال بأنه استطاع أن يؤسس قاعدةً للمستقبل، مما بعث في مشاعره دفعة رضا.

كان يضع قدميه في الماء، فيما كانت أسماك صغيرة نزقة تطوف حولهما أو تلامسهما.

بدأ ضباب شفاف يهبط على الماء كوشاح من رماد.

تقدم بضع خطوات في الماء، القصب من حوله يهمس بصوت الريح، كأن الطبيعة كلها تتحدث لغةً لا يفهمها أحد.

منذ الصباح وهو يشعر بأن شيئا ما مختلف، لكنه لا يعرف ما هو بالضبط.

كان حمزة يقف عنده.

العم عبد الرضا يقول إن الأمير ناصرا تولى إمارة السعدون.

لم يعلق، واستدار عائدا إلى البيت.

فكر كم كان الشيخ مجبل حصيفا ولديه قدرة على تتبع الأحداث.

بعد انتقاله إلى "عكد الهوى" بدأ يوسع نطاق علاقاته في دائرة وجهاء السعدون، ومما خلص إليه أن الأمير القادم سيكون ناصر باشا، ومما استنتجه أيضًا أن ناصر باشا يحلم بأن ينتقل من سوق الشيوخ إلى عكد الهوى ليبني عاصمة الإمارة.

بدأ يشتري البساتين على جانبي الفرات بعقلية تاجر عقارات محترف.

كان يمشي بين الأزقة القديمة كمن يبحث عن ظل يعرفه منذ زمن.

لا أحد يلتفت إليه، ولا أحد يسأله عن شيء.

كان حضوره يشبه الغياب، وكلماته قليلة، لكنها حين تقال، تترك أثرًا لا يمحى.

"أنا مشتر حقيقي، والدفع بالليرة الذهبية وفورا"...

في المقاهي التي تهجرها الضوضاء، يجلس قرب النافذة، يطلب قهوته السوداء، ويستمع إلى كل ما يقال:

"حسين لا يمكنه تسديد الضرائب ويفكر بالبيع"...

كل بيت مهجور، وكل أرض منسية، يرى فيها ما لا يراه الآخرون.

لا يشتري الجدران، بل يشتري الزمن القادم الذي سيتكئ عليها.

يوقع العقود بيده الهادئة، ويغادر بلا ضجيج.

الناس لا يدركون أنه يجمع الخيوط الخفية لمستقبل لم يكتب بعد.

هكذا هو، لا يتعجل، لا يراهن على الصدفة، بل يسمع الهمس قبل أن يتحول إلى صخب.

يشتري بصمت ما سيغدو لاحقا حلمًا يتسابق الناس إليه... ولكنه وحده كان يعرف الطريق منذ البداية.

غادر صباحا إلى "سوق الشيوخ" التي كانت بوابة الأهوار، وطلب من ابنه سلطان أن يعد القارب.

قال سلطان: "هل أرافقك؟ فقد يتعبك المردي أو التجديف في الفرات".

رد بـ"لا" كبيرة استغربها سلطان.

"نعم، كنت أحلم بذلك، ولكنه حلم يقظة مبني على حسابات.

الأمير ناصر باشا بعث يطلب أن أقابله.

أعرف أنه علم أني الآن أكبر ملاك في عكد الهوى، وهو سيبدأ بعملية بناء دار الإمارة".

كـان الأميـر ناصـر واضـحا جـدا، لـم يـدخل فـي أيـة مقدمات.

بعد القهوة في دار الإمارة قال:

"إنه يريد أن يشتري مقهى أبو زناد وبستان زاير نعيمة الـذي يقـع خلفـه، وبيوتـا قديمـةً فـي زقـاق عكـد الهـوى، وربما لاحقا بساتين قرية آل صفر.

لا أخفيك أنها لبناء دار الإمارة ودور الحكم اللازمة.

أنا أعرف الأسعار التي اشتريت بها، فكل شيء مسجل في دائرة العقار، كما أعرف أنك اشتريت بقصد الربح.

- قل سعرك

فوجئ بذلك، ولكنه بروحية المقامر قال:

"عـن أي أسـعار تتحـدث أميرنـا الكبيـر؟ أنـا ابـن هـذه الإمارة، وما أملكه هو ملكها أصلا.

هـل يمكـن أن أعتبرهـا مسـاهمةً فـي بنـاء إمـارتكم العظيمة؟"

كانت الشائعات والأقاويل وما يتداوله الشيوخ الذين ألتقيهم كلها تؤكد أن الأمير ناصرَ كريماً ويفتخر بذلك.

ابتسم ومد يده يصافحه:

"ستستلم ما اشتريت به مع ثلاثين في المائة أرباحا حلالا لك".

"أنت تحرجني أميرنا العزيز، ولكن بكل سرور".

وهو يغادر، نادى عليه، وعلى وجهه تعبير من يفكر بأمر ما:

"لقد عينتك مستشارا عقاريا ومشرفا على بناء المدينة الجديدة".

قال بعد أن انحنى أمامه:

شرف كبير أن أعمل معكم، سمو الأمير

- والآن، وبعد صدور الأمر الأميري،

صديقك من أهم رجال العهد الجديد.

قال:

- فاتني أن أعلمك أني بعد صدور الأمر الأميري اقترحت على الأمير ناصر أن يسمي المدينة الجديدة (الناصرية)

كان الشيخ مجبل يتحدث بلهجة متسارعة تسكن بين حروفها بهجة نجاح يتحقق على نحو لم يتوقعه.

- مبارك، وأرجو الله العلي القدير أن يظل معك.

- شكرا، عزيزي هيّال، لي رجاء عندك!

- عندي؟ قالها باستغراب.

- نعم... أحتاج إلى اثنين من أولادك، هما إبراهيم وحنظل، ليكونا معي. أعرف أنك لا تستغني عن حمزة.

- ولكن ماذا سيعملان؟

- في متابعة المدينيين وفي جمع الإيجارات... تعلم أن صالحَ لا يمكنه ترك العشيرة، ولا أرغب في التنازل عن المشيخة لغيره... أنت تعلم أني سأعاملهما كابني صالح.

- ليس عندي شك.

- كنت أرغب أن تكون أنت معي، ولكني أعرف طموحك. أنت تبني في الأهوار، وأرجو من الله التوفيق.

ترك الزورق ينساب ببطء، وبدأ يقلب طلب الشيخ مجبل في ذهنه.

إنه يرى المستقبل، وعمل ولديه مع الشيخ مجبل غطاءً يمكن أن ينفعه.

أغمض عينيه، واسترجع الحديث:

يا بني، لا تبن بيتك على رمل الآخرين، فسينهار حين تهب الريح.-

ابتسم بمرارة.

العصر تغير، والمبادئ صارت عملةً نادرةً، والرياح اليوم ليست عادلةً.

في عالم كهذا، هل يكفي أن تكون نزيهًا لتؤمن مستقبل عائلتك؟

كان يوقع صفقةً مع ضميره.

المساء حزين. في تلك الليلة لم يشعر جواد بالرغبة في النوم.

جلس عند باب غرفته الصغيرة، يراقب القمر وهو ينساب فوق بيوت قرية « آل هيّال»، مثل يد بيضاء تمسح وجه العالم.

راح يفكر في أن يغني للمساحات التي غدت بورا، تقطعها شقوق عميقة طولا وعرضا، فقد غادرها الماء.

في الغناء قد يعبر عن عمق حزنه.

لقد غادر جده «هيّال»، وقد بدأت معالم قرية لم يألفها الهور تظهر نموذجا للصبر والجهد والإبداع.

تضاعفت البيوت، وعند السور من جهة الهور بنى حظيرةً كبيرةً للمواشي، ألحق بها مخزنا للعلف ومساحةً في نهاية الحظيرة لفضلات الحيوانات، تجفف بعد أن تتحول إلى أقراص دائرية (مُطّال) لاستعمالها في الوقود وطرد جيوش البعوض التي تملأ فضاء القرية كل مساء، لا يدفعها للهرب إلا الدخان أو المطر.

إلى سنين قليلة خلت، كانت قرية «آل هيّال» مركز تسوق للكثير من القرى المجاورة؛ فقد توسطها سوق

منظم يضم نحو الثلاثين دكانا بإيجار رمزي، جعل القرية تضج بالحركة والنشاط منذ الصباح الباكر وحتى المساء.

كما كانت مركزا لتجمع صيادي الأسماك والطيور في الصباح الباكر لينقلوا بضاعتهم إلى الناصرية وسوق الشيوخ.

ولكن جبر ابن عمه يقول إنَّ القرية الآن ليست إلا منازل يسكنها الحزن والضياع، ولولا صياح الأطفال وصراعهم لبدت كأنها في سبات.

كيف سيجد «هيّال» القرية التي بناها حلما للخلود؟

الماء القريب، والقصب الذي يرقص مع تدفقها صباحا، والطيور التي تهبط فوق الماء فجرا...

يقول له جبر على الهاتف ولتك تغرق بالمطر انه نهض في الصباح الباكر ليزور قبر جده الذي أصر أن يدفن في أرضه، كان يسير فوق أرض متشققة، يشعر أن قلبه قد جف مثلها، وأن حزنهما مثل ظل لا يغيب.

وهو يقف عند القبر، أحس برغبة عميقة في أن يعيد الحياة لـ"هيّال"

كان جواد يعود الى قرية آل هيّال بفكره

- أبي، أنت لا تعرف الكثير عن جدنا «هيّال»... هل تعرف أحدا من كبار السن لديه معلومات عنه؟

قال الشيخ عبد السلام بصوت ضعيف فيه رنة انكسار:

- نعم... ربما كاظم المدرس في إعدادية الهاشمية للبنين في الحلة.

كانت القرية تتآكل ببطء. توقف السوق أولا، وانتقل أبو شاكر وباصه الخشبي إلى الشطرة، وما تبقى من الماشية نفق بسبب الجوع، وتراجع الهور عدة كيلومترات. حتى البعوض، الذي كان يتسلى بغزو القرية كل مساء، لم يعد يمارس هوايته.

البيوت الفارغة تجاوزت نصف الموجود، وسكانها رحلوا إلى البصرة والناصرية وبغداد.

كانوا يتوزعون على العمل في الشركات أو الجيش أو شركات النفط، وعدد منهم اختار الأرصفة لبيع المنتجات الصينية.

حين استقل جواد سيارته ليذهب إلى الحلة، كان يفكر كيف سيتعرف على جده هيّال

كان ينظر إليه بإجلال عميق، لا باعتباره مجرد مؤسس العائلة، بل نموذجا للرجل الذي سبق زمانه.

على الرغم من أنه لم يتلقَ تعليما، إلا أنه كان يحمل في داخله حلما كبيرا بتشييد مجتمع جديد يقوم على التعاون والعدل والعمل الجاد.

كان يؤمن بأن التغيير لا يحتاج إلى شهادات بقدر ما يحتاج إلى بصيرة صافية وإرادة لا تعرف التراجع.

ظل ذلك الحلم حيا في ذاكرته.

من بعيد، لمح فتاةً تمشي بمحاذاة حافة الهور المنسحب بانكسار، تحمل جرةً من فخار وتغني بصوت خافت.

لم يكن في الغناء جمال يذكر، لكنه كان صادقًا بطريقة نادرة، كأنه يأتي من مكان نقي داخلها.

تابعها بعينيه حتى اختفت بين القصب، ثم ظل ينصت إلى الصدى العالق في الأفق.

في الحلة، لم يجد صعوبةً في الوصول إلى متوسطة الهاشمية للبنين.

كان المدرس كاظم العرباوي في الدرس، فانتظره جواد في غرفة مدير المدرسة.

كان المدير رجلاً أصلع الرأس، يلمع رأسه تحت ضوء المصباح الكهربائي المعلق، ولم يتبادل معه الحديث، إذ كان منشغلا بتدقيق جدول دوام المدرسين.

دخل كاظم، وقال بابتسامة متعبة:

- ماذا تريد أن تعرف عن الجد «هيّال»؟

قال جواد:

- كل ما تعرفه.

- حسنا... سأبدأ بمواصفاته.

كانا في مقهى مقابل المدرسة.

قال كاظم:

- كان طويل القامة، قوي البنيان، يتمتع بقوة تَحمُّلٍ نادرة. بشرته بيضاء، ولحيته حمراء مدببة النهاية.

وحين كان يستمع إلى محدثه، كان يتطلع بعينيه كأنه يحاول أن يكتشف حقيقة ما وراء الكلام.

سأروي لك حكايةً طريفة...

كان مع ابنيه «حمزة» و«حنظل». بالمناسبة، أنا من أحفاد حنظل، أما الشيخ عبد السلام فهو من أحفاد حمزة.

كانوا عائدين من سوق الشيوخ بعد أن باعوا ما حملوه من سمك وحنطة وعدد من الخراف، وتسوقوا من هناك السكر والقهوة وقطع القماش للعائلة التي بدأت تتكاثر في القرية عند الأهوار، وكذلك الطحين.

انزلق الزورق إلى منطقة ضحلة، وكان لا بد من النزول ودفعه.

نزل حمزة وحنظل، وحاول «هيّال» أن يساعدهما بدفع الزورق بالعصا الطويلة (المردي).

حينها سمع صوت إطلاق نار، أعقبه صوت رجل يختبئ في حزمة كثيفة من القصب.

قال حمزة بصوت مرتجف:

- أبي... من يطلق النار؟

أجابه «هيّال» بصوت مطمئن كنسيم الأهوار عند الفجر:

- قاطع طريق جبان.

اقترح «هيّال» أن يذهبا بالزورق ويبقى هو للمشاغلة، لكنهما رفضا وطلبا منه أن يذهب هو بالزورق، ويفرغا هما للمهاجم.

سحب الزورق بضعة أمتار، ثم توقف، فقد لامس قاع الطين.

انحنى «هيّال» ورفع الزورق إلى كتفه وهو منحن وسحبه إلى الماء، وخلفه كان ابناه والمهاجم يتبادلون إطلاق النار.

مرت لحظات ثقيلة، والصدى يتردد بين القصب.

لكن لم يعد هناك صوت سوى طنين الحشرات ورفيف الطيور.

التفت إلى ولديه، فرآهما يرفعان بندقيتيهما في الهواء.

تقدما ليسحبا الزورق إلى الماء.

انفرج البردي عن مسار ضيق من الماء، كأنه باب من سلام.

قال «هيّال» وهو يجلس القرفصاء في الزورق:

- في الأهوار، يا ولدي، لا يسمع الهدوء إلا من يسكن قلبه الشجاعة.

أما من يملأ قلبه الخوف، فيسمع الرصاص حتى من صمت الطين.

ابتسم الولدان، وقد بدأ الخوف يتراجع.

كان الزورق يشق طريقه ببطء، لكن بثبات، بين خضرة لا تنتهي.

ظلت الحكاية تتداول، يضاف إليها كل يوم سطر عن بطولة الابنين، وعن قوة «هيّال» التي جعلته يرفع الزورق وحده.

الفصل الخامس

أيقظتني أمي بشيء من التردد والهدوء، كان الظلام ما يزال يتمدد، ومن بعيد. كانت حزم البردي والقصب تبدو غابةً مكتظةً، ونسيم رطب يمسح سقف الدار.

بدأ سريري المصنوع من جريد النخل يئن وأنا أتقلب قبل أن أنهض.

عند الباب كانت سيارة أبي شاكر تدور محدثةً صوتا ناعما، فيما كان هو يجلس خلف المقود، على رأسه كوفية ملفوفة من الأمام وتنسدل على كتفيه.

أبو شاكر لا يلبس العقال كما يفعل رجال الهور أو القرى المحيطة به، وكنت معجبا بذلك، حتى إني نويت أن أفعل مثله إذا كبرت.

بعد أن استقر بي الحال وأبي في مقدمة السيارة، توجهنا إلى ضفة الهور لنجمع بائعي السمك والقيمر والطيور.

في الطريق كان الكل يتحدثون وكأنهم في عجلة، حتى إنهم لم يراعوا وجود الشيخ عبد السلام بينهم.

أبي وأبو شاكر لم يتبادلا غير تحية الصباح، وربما كان كل منهما يفكر في أمور بحاجة إلى حل.

كـان بيـت عمـي عبـد الكـريم بواجهـة مـن الطـابوق الأصفر، يتوسط جداره المطل على الشارع باب خشبي ذو مصراعين، وفي المنتصف مقبض نحاسي كبير لطرق الباب.

كانت تدور في ذهني أفكار مختلطة حتى إني تعبت من تتبعها، فقررت أن أتطلع إلى البيوت على جانبي الطريق ونحن ندخل الناصرية، وإلى الناس الذين يبدون على عجلة من أمرهم.

الناس في الأهوار، والجاموس، والطيور التي تزور الأهوار، يتحركون ببطء واسترخاء، وبعضهم يغني وهو يدفع بالمشحوف عبر طرقات ضيقة بين حزم القصب والبردي.

كان استقبالا حافلا؛ ضمتني زوجة عمي إلى صدرها، ووقفت ابنتها الوحيدة أمامي بضفيرتها الطويلة وثوبها المنقوش بصور حمراء ووجهها الممتلئ، وهي تتطلع إلي بشيء من الفضول.

قال عمي:

- غدا سأذهب لتسجيله في المدرسة، بالمناسبة هي قريبة من الدار.

أخرج أبي لفةً صغيرةً من النقود الورقية وقال:

- هذه مصاريف جواد، يوميا عشرة فلوس، ومصاريف احتياجاته الأخرى في البيت، وكل ما يحتاجه من ملابس للمدرسة.

لم يعترض عمي، تناول اللفة ووضعها في جيبه.

في الطريق إلى المدرسة شعرت بشيء من الرهبة؛ عند الملا مهدور لم يراودني ذلك، فقد كنت أعرف أني ابن الشيخ عبد السلام..

جرى كل شيء بسرعة، وحينما عدت إلى البيت شعرت أني غيري، قبل أن أسجل تلميذًا في مدرسة فيصل الثاني الابتدائية للبنين.

سألت عمي عما يكون «البنين»، فقال وهو يبتسم ويربت على كتفي:

- يعني الأولاد مثلك، وهناك مدارس للبنات.

تآلفت مع المدرسة، بل أكثر من ذلك؛ كانت بالنسبة لي عالما مدهشا.

نتجمع صباحا لنرفع العلم وننشد للملك، ثم ننصرف إلى الصفوف.

بدأت أتعلم أشياء لم أسمع بها من قبل، وكنت أقرأ في الصف قراءةً جعلتني في المقام الأول عند معلمينا، وعلى وجه الخصوص عند معلم الدين والقراءة.

كان يطلب مني أن أتلو بعض السور من القرآن أو أقرأ في كتاب «المياسة والمقداد»، وهو ينصت والتلاميذ

كنا في السوق، أنا وعمي. سأل عمي زوجته:

- ماذا تريدين؟

قالت: لعابة.

وحينما سألني، قلت: تغريبة بني هلال.

نظر نحوي متعجبا وقال:

- وأين أجدها؟ في الناصرية لا توجد مكتبات، وليس لدي وقت لأذهب إلى سوق الشيوخ، فقد سمعت بمكتبة جامع آل حيدر، وإن كنت أشك في أن لديهم هذا الكتاب.

ثم توقف ملتفتا إلي وسأل:

- سيرة من؟

قلت: بني هلال. وتابعت: موجودة عند العطار في أول السوق.

حدق بي عمي طويلا، لكنه لم يتكلم. أمسك بيدي وتوجهنا إلى العطار..

كانت المدرسة تمثل لي حياةً مختلفة. دخلتها وأنا أشعر أني أفتح بابا لعالم جديد. كل شيء كان مختلفا عن قريتي الصغيرة: الصفوف مرتبة، والمعلم يشرح بثقة،

والطلاب يرفعون أيديهم بحماس. كنت أستمع بانتباه، وأتخيل كيف سأعود يوما إلى الريف لأعلم الأطفال هناك ما تعلمته. كانت المدرسة بالنسبة لي مثل نافذة على المستقبل، ومن خلالها رأيت حلمي يكبر شيئا فشيئا.

ما عزز مكانتي في المدرسة وجعلني موضع إعجاب التلاميذ والمعلمين..... هو تلاوتي للقرآن صباح يوم شتائي. استدعاني

معلم الدين إلى غرفة المعلمين، وقال

- تقرر القيام بحفل تأبيني لصاحبة الجلالة الملكة عالية غدا في المدرسة، وسيحضر مدير معارف اللواء.. .، ويفتتح الحفل التأبيني بتلاوة آيات من الذكر الحكيم. ولمعرفتي بحسن تلاوتك، فقد رشحتك لهذه المهمة. فهل أنت مستعد؟

شعرت بخليط من الفخر والخوف؛ فأنا أتلو القرآن في الصف، لكن لم يحدث أن قمت بذلك أمام جمهور.

قلت: نعم.

ابتسم وقال:

- جميل، ولكن على الرغم من صوتك الذي يحمل شحنة أسى وعذوبة، إلا أنه غير ملتزم بضوابط الإيقاع.

شعرت بالاستغراب، فقلت

- لم أسمع بهذا من قبل، ما معنى الإيقاع في قراءة القرآن؟

قال:

- التلاوة تكون عادةً وفق مقامات لحنية، وأفضل مقام لتلاوة القرآن على الميت هو مقام البياتي، لما يحمله من خشوع وحزن.

قلت:

- كنت أتلو عند معلمي الملا مهدور، وفي صباحات العيد في بيتنا حين تتجمع العائلة قبل صلاة العيد، ولم يخبرني أحد عن البياتي.

ضحك المعلم نظام الدين وقال:

- تلاوتك جيدة، ومع بعض التدريب السريع يمكن أن تكون أكثر تأثيرا. هل في ذهنك سورة معينة؟

قلت:

- سورة يس

قال:

- إذن، اذهب إلى البيت وأخبرهم بأنك ستتأخر في المدرسة للتمرين على التلاوة.

في صباح اليوم التالي، لم نقف لتحية العلم ولا للنشيد الوطني. كان التلاميذ يقفون على شكل مربع مكون من صفين، يعلوهم حزن، ويلفهم صمت قلق.

في وسط الساحة منضدة خشبية عليها غطاء أسود، وفي وسطها كرسي من الكراسي التي كنا نستعملها عند الملا مهدور، عليه نسخة كبيرة من القرآن مفتوحة على سورة يس.

أعلن المعلم نظام الدين سبب الاجتماع، قائلاً:

- نجتمع اليوم لتابين صاحبة الجلالة الملكة عالية وافضل ما نبدأ به تلاوة من القرآن المجيد من سورة يس يتلوها عليكم زميلكم جواد عبد السلام..

شعرت بشيء من الامتعاض، فأنا جواد بن الشيخ عبد السلام، كما أني أتلو سورة "يس" التي أحفظها. كانت تلك أول مرة أواجه فيها جمهورا ينصت ويتطلع نحوي بفضول.

وحين رفعت صوتي، ران في الساحة صمت عميق، وتغير كل شيء. انساب صوتي نقيا كالماء، رخيما كصوت البلبل في الفجر. سكنت الساحة تماما، لا ضحك ولا حركة، حتى أنفاس التلاميذ بدت وكأنها توقفت احتراما لذلك النور الخارج من بين شفتي.

اقترب أحد المعلمين من زميله وقال هامسا:

- هل تسمع هذا الصوت؟ كأنه قارئ من دار الإذاعة العراقية.

أومأ الآخر إعجابا وقال:

- صوت يملأ القلب إيمانا... سبحان من ألهمه هذا الجمال.

حين انتهيت من التلاوة، عم الصمت لحظة، ثم انفجر الجميع بتصفيق حار. ارتسمت على وجهي ابتسامة خجولة، وارتجف صوتي وأنا أقول:

- الحمد لله.

اقترب مني المعلم نظام الدين، وربت على كتفي قائلًا:

- أحسنت يا جواد، لقد جعلتنا جميعا نخشع معك. استمر، فصوتك هبة من الله.

عدت إلى مكاني في الصف المعتاد.، ما حصل منحني شعورا بالتفوق، وأثار في نفسي نزعة غرور صغيرة. فكرت أني ابن هيّال.

كانت رقية، ابنة عمي، عند الباب الذي فتح قليلا لترقب الطريق، وعلى وجهها مسحة مختلطة من اللهفة والفرح... كانت بانتظاري.

قالت:

- قبل قليل أخبرتني صديقتي خنساء.

ثم صمتت، وتطلعت في وجهي وهي تشبك يديها على صدرها.

شعرت بفرح غامر، وحين دخلت استقبلتني زوجة عمي بزغرودة وقبلتني. لم يكن عمي في البيت. شعرت بإعياء، فكل هذا الفرح يضغط على مشاعري، وأعادني إلى جو المدرسة، حين كنت أتجاوز توتري وأنا أتقدم نحو وسط الساحة لأجلس على الكرسي والجميع وقوف يتطلعون إلي بمشاعر وأفكار متباينة.

في الليل، وأنا أغطي وجهي ببطانية ملونة، شعرت أني إنسان آخر، فقد كان ما حققته مدخلا لشخصية جديدة، وقد تعرفت على هذا التغير في السنوات اللاحقة.

أدركت أن الحياة لا تحتاج إلى الكثير كي تتبدل، وأن فعلًا صغيرًا يمكن أن يوقظ فينا إنسانا نائما.

منذ ذلك اليوم تغيرت نظرتي للعالم، صرت أرى في الوجوه قصصا، وفي الكلمات بريقا، وفي الأفعال الصغيرة معنى كبيرا.

أدركت أن التغيير ربما لا يحتاج إلى صوت عال.

كانت زوجة عمي تتكلم بصوت هادئ، ولكنه حازم:

- فكر بجواد.

كانت تحدث عمي. تفتحت حواسي كلها فضولا لأعرف ماذا تريد.

قال عمي:

- ولكنها أكبر منه بثلاث سنوات.

ابتسمت وأغمضت عيني. لم أكن أفكر بها أصلا.

مرت السنوات ببطء وأنا أنتقل من الدراسة المتوسطة إلى الثانوية، محققا كل عام مستوى متقدما. كنت أقضي الصيف في قرية آل هيّال، أجلس على ضفاف الهور الذي بدأ بالتراجع منكمشا على نفسه.

وأحيانا كنت أتعرف إلى بعض الغرباء، كانوا مثقفين، لكني كنت مرتابا وخائفا بعض الشيء.

كانوا يتوزعون على امتداد الهور في الناصرية، وبعضهم كان يتنقل حتى مدينة القرنة شمال البصرة، يحملون كراريس في الدراسات النظرية عن الاشتراكية والديمقراطية وقضايا فلسفية أخرى.

يوم قبلت في كلية الطب، لم أر الفرح على وجه زوجة عمي، فقد كان الأمر بالنسبة لها خسارتي، لأني سأنتقل إلى بغداد.

أما عمي فقد رافقني إلى بغداد.

كنت في السنة الرابعة، وقررت أن أقضي العطلة بين الناصرية وقرية آلبو هيّال.

بدأ أبي يعاني من النقرس، الذي لم يترك له حرية التجول في الهور أو السفر خارج القرية.

توسعت القرية، وأصبح السوق الصغير شارعا مكتظا بالمحال المتنوعة، يقصده أبناء المنطقة من الفهود وحتى نصر السواري.

خرجت من بيت عمي. كانت رقية تسكن في الطابق العلوي مع زوجها وابنتيها.

سوق الناصرية فوضى منظمة، الطلبة ينادون على بضاعتهم، من ملابس الأطفال إلى السمك والباذنجان والعمبة الهندية.

شعرت بتعب، فتوجهت إلى أول مقهى في الشارع المزدحم بسيارات من كل مصانع العالم. كانت المقهى مزدحمةً، يسودها صمت نسبي؛ الجميع يتابعون مباراةً بكرة القدم يبثها تلفاز موضوع على منضدة عالية. يبدأ الصراخ والشتائم حين يخطئ أحد اللاعبين.

كانت هناك منضدة وحيدة على الرصيف، يجلس عليها شاب رفع قدميه عليها. نظرت إلى الكرسي بجانبه وقلت:

- هل يمكن أن أجلس، رجاءً؟

لم يرد، لكنه أنزل قدميه. كان يتطلع نحوي بلا مبالاة. كنت أرتدي الزي المحلي: جلابيةً بيضاء، فوقها عباءة شفافة سوداء، ويشماغا عراقيا فوقه عقال.

لم يحضر النادل بعد، وبدأت مقدمات موجة غبار تدخل الشارع، ثم تكاثف الرمل الذي تحمله ريح شديدة. هرع الجميع الى الداخل يشتم ويسارع بالمغادرة، خفت زحمة السيارات وتوقف المارة. رفعت يشماغي لأغطي فمي وأنفي، لكني لم أبرح مكاني.

توقف رجل بشعر أشعث وعينين تدوران على نحو لافت، لم يكن مهتما بالغبار الرملي، وقال:

- مرحبا محمد.

لم أجب. فأعاد التحية:

- هل تتكلم معي؟

- وهل غيرك على التخت؟

- ولكني لست محمدَ.

- لا تتغاب، أنا أعرفك جيدا. قبل أسبوع اشتريت منك سلة سمك وثلاثًا من الخضيري.

- فعلا، أنا لست محمدَ. اسمي جواد، وأنا طالب في كلية الطب ببغداد، وأسكن في قرية آل هيّال.

- تتغابى؟ لن ينفعك ذلك.

ثم غادر.

قال النادل الذي كان يضع منديلا على فمه:

- هل تشرب شيئا؟

قلت: نعم، حامض.

قال: يوجد شاي فقط، نومي البصرة مقطوع.

قلت: لا بأس، شاي.

بعد قليل توقف أمامي ثلاثة بملابس مدنية. قال أحدهم:

- هل تتفضل معنا؟

- إلى أين؟

- أنت مطلوب للوحدة الخاصة.

- لماذا؟

- هناك ستعرف.

كان النادل ينظر نحوي بإشفاق، مما أثار في نفسي الشكوك.

قلت:

- هل تسمحون بالاطلاع على هوياتكم؟

تبادلوا النظرات، ورد أحدهم، وكان قصير القامة، داكن البشرة:

- نعم.

وأخرج هويةً رسمية: خلف جعاز مهدي، نائب عريف. دخلنا مبنًى عاديا بعد الباب كان شرطيان يجلسان على مقعدين حديديين متقابلين.

قال أحدهم:

- جئتم به؟

شعرت أن الموضوع جدي، وأني متهم فعلا. كان ذلك تثبيتا لشكوكي الممزوجة بموجة خوف غريزي.

نقر "خلف" على باب خشبي مدهون بلون بني قاتم، ربما منذ سنوات.

سمعنا صوتا يقول:

- ادخل...

سحبني خلفه برفق. كانت رائحة المكان مزيجا من الورق القديم والقهوة المرة والسجائر... رائحة تعب وبقايا أسرار.

كان وراء مكتب حديدي تتكدس فوقه أضابير مختلفة رجل بدين، وجهه شبه دائري، تدور عيناه بشيء من الريبة والمكر.

أدى خلف التحية العسكرية وقال:

- سيدي، جئنا بمحمد.

قلت:

- ولكني لست محمدَ، أنا جواد ابن الشيخ عبد السلام العرباوي من قرية آلبو هيّال، وأنا طالب في كلية الطب ببغداد...

رفع الرجل، الذي خلف المكتب، يده إشارةً للصمت، وقال بصوت جاف:

- هل أذنت لك بالكلام؟

- آسف، أستاذ.

- لست أستاذًا، ونحن لسنا في ثانوية الناصرية... أنت هنا في منظمة التحقيق الخاصة.

جلس على كرسي خشبي، ويده تعبث بمسبحته في حركة قلقة، بينما كان صوته الداخلي لا يكف عن السؤال:

- سيدي، أعتقد أن هناك سوء فهم، فأنا كما قلت لست.....::

شعرت ان الأرض تمسك بكاحليه.

*****

المكتب بسيط، الإضاءة قوية أكثر مما يجب، والكرسي المقابل خال إلا من ظلال الشك.

المحقق البدين لا يرفع نظره، يقلب أوراقا، ثم يسأل بصوت متزن وبارد:

- ما هي الزمر الإرهابية المعادية للثورة في منطقة الهور؟

في تلك اللحظة، شعرت أن كل حرف من اسمي يسحب مني شيئا فشيئا. حاولت أن أبدو هادئا، أن أضبط صوتي، لكن نبرتي خانتني بين الخوف والإنكار والرجاء.

كانت في صدري رغبة غامضة بالصراخ.

قال الرجل ببرود:

- اسمع، ليس لدي وقت أضيعه معك، سأحولك إلى الملازم عبد الواحد.

رفعت عيني إليه، وفيهما سؤال أكبر من القضية نفسها:

هل سأخرج اليوم بريئا كما دخلت؟ أم سيبقى هذا الجدار الرمادي شاهدا على لحظة انكسر فيها يقيني بالعالم؟

كان الملازم عبد الواحد في هيئته يشبه أحد القتلة في مسلسل أمريكي شاهدته على التلفاز في نادي كلية الطب ليلة شتاء، كنت فيها في مناوبة بالمستشفى.

أمسكني عبد الواحد من ياقة جلابيتي، متعمدًا إيقاع العباءة على الأرض، ومشى بضع خطوات ليدفعني بعنف إلى غرفة شبه مظلمة.

قال بصوت خشن:

- سأختصر عليك الطريق... من هذه الغرفة لن تخرج إلا ميتا أو معترفا. أنت من يختار. ولكن تأكد أنك إن لم تتعاون معنا، فسنجرب أولا أشكالا لم تسمع بها من التعذيب.

سأتركك نصف ساعة، وسيقدم لك المعين الشاي لتسهيل انطلاق لسانك.

لم أستطع التماسك، جلست القرفصاء على الأرض العارية، مكوما على نفسي.

تركت مستندات التعريف الرسمية في بيت عمي، وليس من حل لهذا الإشكال إلا الله؛ فالجماعة يرغبون، وباتجاه جاد، في حسم قضية محمد العماري، المنسق لشؤون المقاومة في الأهوار.

كنت قد سمعت به مرةً من أبي، إذ كان يحدثني أنه زارهم مرتين للحصول على بعض المعونة من الملابس والسكر والشاي؛ أمور الطعام يحلها الهور الزاخر بها.

سـمعت جلبـةً وطرقعـة أحذيـة عسـكرية علـى الممـر الإسمنتي، ثم صوت أحدهم يعلن بلجاجة:

"العميد إسماعيل عند الباب".

ومـن الفتحـة الصـغيرة فـي البـاب رأيـت البطـين يتقـدم وهو يعدل وضع البيرية على رأسه.

لم أتبين العميد جيدًا، لكني سمعته يقول:

- إذا، فقد تم حل مسألة محمد العماري؟

- نعم، سيدي.

- أين هو؟

توجـه أحـدهم ليفـتح بـاب غرفـة التعـذيب. نهضـت مسـتعينا بمـا بقـي لـي مـن قـوة، ودخـل اثنـان. كـان مـن الصعب تبين ملامحهما، فقد كنت أواجه مصيرا غايةً في التعاسة، فضلا عن الظلمة التي تعم الغرفة.

كـان العميـد يجلـس علـى كرسـي البطـين، وقـد وضـع البيرية على المنضدة. كان ممتلئًا، بوجه صارم التقاطيع، وشـوارب سـوداء كثـة، وشـعر يـذكرني بالممثـل المصـري أنور وجدي.

حـين واجهتـه بـدا طيـف مـن الاسـتغراب علـى وجهـه، وقال:

- هل أنت محمد العماري؟

- لا، سيدي. أنا جواد ابن الشيخ عبد السلام من قرية آل هيّال.

- هل معك إثبات؟

- لا، سيدي... المستندات في بيت عمي عبد الكريم.

- عبد الكريم العرباوي؟

- نعم، سيدي.

قال للبدين:

- اطلب السائق.

ثم أضاف:

- خذ جوادا إلى العنوان الذي يزودك به، ليجلب مستنداته.

كان البطين يرين على وجهه خيبة أمل ممزوجةً باستغراب قلق.

حين عدت بالمستندات، تصفحها العميد وقال:

- اجلس... هل تحتاج إلى ماء؟

- شكرًا، سيدي، أحتاج إلى كأس من الشاي.

ابتسم قليلا وقال:

- لقد عرفتك وأنت تدخل. أنا وأبوك رفقة، وقد كنت أراك في الصيف حين أزوركم.

ثم أضاف بنبرة فيها شيء من الأسف:

- أعتذر عما حصل، ف- العماري سبب لكل من يعمل في دوائر الأمن صداعا. منذ سنتين ونحن نتتبعه دون جدوى.

كان هذا هو الحدث الثاني في بناء شخصيتي الحذرة والمنطوية.

الفصل السادس

في قرية آلبو هيّال، كان الشيخ عبد السلام يخرج إلى الهور بعد صلاة الفجر.

القرية والهور يلفهما الصمت في تلك الساعة، وتغمرهما أشعة الشمس عند الضحى.

كان الشيخ يجلس على دكة من الطين، صقلتها نهارات الصيف حتى غدت كرسيا ثابتا، تعوّد الجلوس عليه، مادا قدميه في الماء، يتأمل من بعيد أطفال القرية وهم يركضون في الممر الترابي حفاةً، يلاحقون بعضهم بعضا، ولا يعرفون من الدنيا سوى أحلام بسيطة كحبات القمح.

كان قلب الشيخ يفيض أملاً، وعيناه تلمعان بحلم راوده طويلاً:

أن يرى في قريته مدرسةً ابتدائية، تعلم أبناءها الحروف قبل أن يسرقهم الهور، وتفتح لهم نوافذ على العالم قبل أن تضيق بهم حدود القرية.

كم تخيل صباحًا يسمع فيه جرس المدرسة يرن بين بيوت الطين، والصغار يصطفون بزي نظيف ودفاتر جديدة تملؤها الحروف الأولى من أسمائهم.

تخيل المعلم يدخل بابتسامة واسعة، يكتب على السبورة البيضاء: «درس القراءة»، فيتردد صداها في القلوب قبل الجدران.

كان الشيخ يقول لمن حوله دائما:

- الأرض تعطي من يزرعها، والعقول تثمر لمن ينيرها

ذلك الحلم لم يكن رفاهيةً عنده، بل رسالة حياة فقد آمن أن التعليم هو النور.

الذي يبدد ظلام الجهل، وأن بناء مدرسة واحدة أعظم من بناء مئة بيت من الطين.

وفي مساء من أمسيات القرية، وقف الشيخ أمام أرض خالية، رفع يده نحو السماء وهمس:

- هنا ستقوم مدرستنا... يوما ما.

في مديرية معارف الناصرية، أخبره موظف الصادرة والواردة أن طلب إنشاء المدرسة حول إلى وزارة المعارف في بغداد.

وبعد أسبوعين، جاء رد الوزارة محبطًا. حاول الموظف التلطيف قائلا إنهم ينتظرون تخصيصات ماليةً مناسبةً وتوفر الكادر التعليمي.

عاد الشيخ بزورقه إلى قرية آل هيّال، يفكر بمشروع آخر.

المدرسة تحتاج إلى ظروف مغايرة، كما قال له أحد المتخفين في الأهوار وكل شيء مرهون بتغير النظام السياسي.

آنذاك اعتبر الشيخ ذلك مجرد انتقاص من الحكومة، لكنه اليوم بدأ يصدق أن في الأمر شيئا من الحقيقة.

وفكر أن بناء جامع في القرية سيكون بديلاً مناسبا.

اختار قطعة أرض خارج سور القرية، بينه وبين الهور، وتحدث مع ملا مهودر ليتولى شؤون المسجد ويكون مؤذنه.

كان صوت الملا مهودر جهوريا، فكان الشيخ عيادة يستيقظ على الأذان كل فجر.

قال الابن الأوسط عبد السميع

"كنت في مضيف الشيخ عيادة، وسمعت بعضهم يتساءلون: لماذا لم نسمه حسينية آل هيّال؟

لكني لم أجب، لأني لا أعرف السبب".

فقال الشيخ عبد السلام بهدوء:

- لا تنصت لهم.

كان جواد يتصبب عرقا وقد بدا عليه التوتر وهو يترك السيارة التي أقلته من محطة أور.

استقبله صغار كانوا يلعبون في الممر الترابي وهم يهتفون: "جاء الدكتور!

فتحت أمه ذراعيها لتحتضنه، لكنه اعتذر برفق.

وحين دخل الدار، طلب من أخته أن تسرع بالماء.

كانت الجماهير تملأ شوارع المدينة.

استيقظ على هتافات طلاب القسم الداخلي وصوت المذياع المعلق على رف في الصالة:

"نعيد عليكم البيان الأول... أيها الشعب العراقي الكريم".

وحين أطل من شباك الطابق الرابع، شعر بالخوف؛ فقد كانت الجماهير المندفعة يحكمها غضب لم يشهد له مثيلًا.

شعر أن الشوارع لن تحتمل هذا الزخم البشري الهادر.

بدأ بعض طلاب القسم الداخلي برفع شعارات تحمل طابع التشفي بسقوط النظام الملكي.

وفي الصالة، تجمع الطلبة يستمعون إلى كلمات من قيادات طلابية مختلفة الاتجاهات السياسية.

كانت بينهم طالبة في المرحلة الرابعة، يعرفها بكنيتها، ذات قميص أحمر، طويلة، بوجه جاد الملامح، وعينين واسعتين نظراتهما ثابتة.

كانت تتدقق في حديث عن الثورة والمستقبل.

فكر جواد أن الثورة ليست نباتا شيطانيا؛ إنها مثل حبات الحنطة في مزرعة آل هيّال، لا تنبت قرب ضفاف الهور، بل تحتاج إلى بيئة مناسبة لتنمو.

حين خرج إلى الشارع، كانت دبابة تقف عند المفترق، وعليها ثلاثة جنود متجهين نحو وزارة الدفاع، معتمرين خوذًا حديدية، يلوحون للمجموعات التي تركض باتجاه باب المعظم.

كانوا يبتسمون بحبور لأنهم يؤدون واجبا يدخل البهجة إلى قلوب الجماهير.

لم يسمع صوت الرصاص؛ بدا الأمر وكأنه مسألة متفق عليها.

عاد إلى القسم الداخلي، وقرر أن يغادر بغداد إلى الناصرية، فقد شعر أن الأمور لن تستمر على هذا النحو.

لكن في الناصرية كانت الأوضاع أكثر تعقيدا.

الدبابات منتشرة، والجنود المسلحون يرابطون عند مفترقات الطرق، ولم يمنع ذلك بعض المجموعات المتحمسة من الاعتداء على أفراد لهم صلة برجال الأمن.

أما رجال الأمن أنفسهم فلجأوا إلى مكاتبهم، ينتظرون أن تنجلي الصورة.

استأجر جواد سيارة إلى قرية آلبو هيّال، دون أن يمر على بيت عمه.

لم يكن الشيخ عبد السلام في البيت؛ قالت أمه إنه ذهب مع الشيخ عيادة لتعزية الشيخ هلال في وفاة ابنه عمران بطلق طائش في فرح بالقرية.

جلس جواد في المضيف بانتظار عودة أبيه، يحدث رجال آل هيّال عن الثورة..

كانوا ينصتون باهتمام، لكن بدا أن الأمر معقد وبعيد عنهم... في بغداد.

دخل ثلاثة رجال وجوههم لوحتها شمس الأهوار الرطبة.

سلموا وجلسوا دون انتظار الإذن، ولم يستغرب جواد ذلك، وطلب من جوهر أن يقدم لهم القهوة.

قال أحدهم:

"جئنا لنودعكم ونشكركم؛ فقد كنتم طوال إقامتنا في مسالك الهور متعاونين معنا، لم توشوا بنا ولم تضيّقوا علينا".

أصبح جواد على بينة من هويتهم.

قال الرجل النحيف ذو الملامح الخشنة:

- حيث انتصرت الثورة، لم يعد لبقائنا مبرر.

ابتسم بشيء من المودة وتابع

- سنظل نحتفظ بذكريات عن إقامتنا في الهور، ولن ننسى السمك وطيور الخضيري،

- عدا الماء المالح الذي نضطر لتناوله حين تلاحقنا دوريات الشرطة.

زم شفتيه فابتسم الآخرون.

وحين ودعوهم، قام جواد ليرافقهم إلى سور القرية.

جاء الشيخ عبد السلام يرافقه بعض المسلحين، وقد بدا عليه الاستغراب حين وجد جواد يجلس في صدر الديوان.

فكر في نفسه: هو في مكانه... وكم سيكون سعيدا حين يصبح شيخ آل هيّال

قال الشيخ:

"هل لديكم عطلة؟"

فأجاب جواد:

- قيام الثورة وتعطل الدراسة شجعاني على المجيء.

لم يستوعب الشيخ عبد السلام المعنى تماما.

ما هي الثورة؟ وأين قامت؟"

- ثورة ضد الحكومة والملك

- وهل قتل جلالة الملك؟

نعم، وكذلك الوصي ونوري السعيد.-

شعر الشيخ بالصدمة؛ فقد كان يحب الملك الشاب

- ومن أصبح الملك الآن؟

- لا أحد.

- ماذا؟ يعني نحن بلا ملك؟

- أعلن عن مجلس قيادة الثورة، بقيادة عبد الكريم قاسم.

"وهل عبد الكريم عراقي

نعم، وهو آمر لواء في الجيش العراقي.-

- يعني خربت الدنيا

- ولماذا تخرب؟

"قال الشيخ عبد السلام:

إن عبد الكريم... عسكري، يعني أنه يعرف في شؤون الجنود، فكيف سيقود العراق؟

الثعلب نوري السعيد، وقد استغفلوه وقتلوه، فماذا سيفعلون قاسم هذا؟ الله يستر"...

طلب من جوهر فنجان قهوة، وقال:

"ليكن ممتلئا".

دخل أخواه وبعض المسلحين، فقال محمود:

- هل نلتحق بالثورة في الناصرية؟ لقد جاء بدر الآن وأخبرنا أن المدينة تحت الحكم العسكري.

طلب الشيخ منهم أن يهدئوا ريثما تتضح الأمور.

نسي الجميع تشغيل المذياع الموضوع على رف مرتفع مغطىً بشرشف أبيض موشىً بالحواف الإبرسيم الذهبية.

أشار الشيخ إليه وطلب من جوهر تشغيله.

كان المذيع يقدم وصفًا لتحركات القوات المسلحة، وسيلًا من برقيات التأييد، وكانت نبرة صوته عاليةً يملؤها الحماس على نحو مبالغ فيه.

عاد الرجال الثلاثة إلى المضيف، وكانوا في الطريق إلى أخذ المشحوف إلى الناصرية، حين قابلهم صبي كان يجلس أمام البيت، قال دون أن يسألوه:

الشيخ في المضيف؟ .-

"نعم، قبل قليل، هو وعمي سهران وعمي عبد الله."
حين اجتازوا مدخل المضيف المفتوح من دون باب، نهض الشيخ عبد السلام لاستقبالهم.

اعتذروا عن الجلوس. "عدنا فقط لنودعك أبا جواد".

"ولكن متى العودة؟-

- نأمل ألا عودة، فالثورة أسقطت أسباب عملنا هنا. سنعمل مع رفاقنا في بغداد، أنت وكل أهل الهور مرحب بكم في أي وقت، ونحن لن ننسى ما عشناه معكم."

- ولكن لدينا رجاء أخير.

- نعم.

- أن ترسل أحد رجالك إلى ناحية الفهود ليبعث برقية تأييد لمجلس قيادة الثورة، وأن ترفع الراية العراقية فوق المضيف.

قال جواد: "سأفعل أنا ذلك".

لم يعلق الشيخ عبد السلام في حينه، ولكن بعد مغادرتهم التفت إلى جواد وقال:

- هل يعتقدون أن المضيف دائرة حكومية؟

قال جواد: "من باب التضامن مع الثورة

قال الشيخ

-ثورة تقتل الملك؟! لا أظن أنها ستكون الأمر الجيد. فالمثل عندنا يقول: من لا خير فيه لأهله، لا خير فيه للعالم".

كان المذياع يستعرض سيطرة الثوار على الدولة دون مقاومة، وقرر جواد العودة إلى بغداد.

في صباح اليوم التالي غادر مع أبي شاكر بسيارته الخشبية المحملة بالسمك والطيور ونساء الهور وأطباق القيمر وقناني الحليب، وكان يرن على الجميع صمت ممزوج بترقب قلق، فهم يدخلون الناصرية تحت مظلة الثورة، وهذا يحدث لأول مرة.

توجه إلى موقف السيارات المغادرة إلى بغداد، وكان هناك جمع غير منضبط، فالسيارات المغادرة شحيحة والركاب يتزايدون. لا بد من الركض ولا بد من التدافع لضمان الحصول على مقعد.

فكر أن يلغي السفرة ويقضي اليوم في بيت عمه عبد الكريم العرباوي، إلى أن توقفت عنده سيارة صغيرة،.

حين تراكض الجمهور المحتشد، أنزل السائق زجاج النافذة وصرخ بحدة ليست للأجرة:

لوح بيده ناحية جواد وقال

- شيخ جواد، تفضل بالصدر

بعد صعوده قال السائق:

- "أنا من آل هيّال... شيخ جواد.

اطمأن جواد.

صعد ثلاثة شباب كانوا الأقرب إلى السيارة.

خرجوا من الناصرية باتجاه بغداد، وبدأ حديث صاخب بينهم حول من هو القائد الذي صنع الثورة.

أدار السائق من آل هيّال مفتاح مذياع السيارة، فأطلق صوتا حادا لأغنية حماسية تتوعد الأعداء وتبشر الشعب الكريم بمستقبل زاهر.

علق أحد الشباب بسخرية:

"- العراق في انتقال

قال السائق:

- ما رأيك، شيخ جواد؟

قال جواد بهدوء

- علينا الانتظار قليلًا.

فعلق أحد الثلاثة بازدراء:

- شيخ!!! وأفندي... ماذا يمكن أن يقول؟

توقف السائق فجأةً وقال بغضب:

- انزلوا... ولن أعيد لكم الأجرة!

استغربت الموقف ووجده قاسيا.

اعتذر الثلاثة، وبعد صعودهم ساد صمت عميق يقطعه صوت المذياع.

قال السائق وهو يلتفت الى الخلف

- الشيخ جواد دكتور ولكنه أليق بالمشيخة

الفصل السابع

الجو الجامعي واجه تغيرا ملحوظًا، وكذلك مزاج الشارع العراقي بعد الثورة ومنذ الأسبوع الأول.

ساحة كليتنا والكافيتريا شهدتا انقساما واضحا، عبر توزع الطلبة إلى مجموعات يفصل بينها التباين السياسي.

البعثيون ومجموعات من حركة القوميين العرب وحزب التحرير الإسلامي في الجانب القريب من المصاطب الخشبية التي يحرصون على الجلوس عليها مبكرا، قرب السياج الذي يفصل شارع الزقاق الضيق عن حديقة الكلية، كان الشيوعيون، يتبادلون نظرات عداء واضح ومتحفز.

في خضم هذا الصراع فكرت بأن اشغلهم بنشاط آخر، قلت سوسن ماذا لو نقوم برحلة طبية الى الأهوار...نقوم بتلقيح الأطفال.

تلقت الفطرة بحماس وبعد يومين كان الجميع يتحدث عنها.

في الكافيتيريا تم انتخاب لجنة من ثلاثة من الطلاب لتنظيم الرحلة، أحدهم لأخذ الموافقة الرسمية من عمادة

الكلية، والثاني لاستلام الأمصال والحقن، والثالث لتنظيم موضوع الباص.

كنت أعرف صديقا في كلية الآداب يعمل والده مديرا لشركة نقل الركاب بين بغداد والبصرة، ذهبت إليه، ومساءً كنا عند أبيه... اتفقت معه على برنامج السفرة وعدد الطلاب، ودفعت له نصف المبلغ.

عدت بالتفاصيل ورقم الباص وساعة وصوله إلى باب الكلية وساعة التحرك، وأعطيته هاتف بيت عمي عبد الكريم في الناصرية

تم الموضوع على عجل، وقبل يومين غادرت بغداد لأسبقهم لإعداد الترتيبات اللازمة لاستقبالهم.

رتبت الأمر مع مديرية صحة اللواء، كما قمت بإعداد مضيف الشيخ عبد السلام لاستضافة الطلاب، ومضيف الشيخ عيادة لاستضافة الطالبات، كما وفرت خمسة عشر مشحوفا لزيارة مسالك الهور.

قالت سوسن:

"- كانت الطريق سفرةً غايةً في الروعة. لقد اكتشفنا المواهب الفنية لأطباء المستقبل؛ فقد غنى جاسم، وهو من العمارة، أغنيةً ممتعةً، كان اللحن شفافًا وبه لمحة كرب حزين. قال إنه المحمدي،

فقلت لها: يقصد المحمداوي .

قالت: نعم، فعلًا، المحمداوي".

بدأنا بالمطاردة الشعرية، وقد كان عبد المطلب يجد دائما الرد بسهولة مثيرة للإعجاب، إلى أن اكتشفنا أنه يؤلف من عندياته. وقال إنه شاعر وينوي طبع أول ديوان له قريبا.

وكانت فريال منجما لنكت متنوعة، كما أن لديها القابلية على تقليد حركات أو أصوات المغنين وكذلك الأساتذة.

لم نشعر بطول الطريق ولا بالملل. لا أنسى أن أخبرك أن الجميع يشعرون بالامتنان لك، ويتوقعون تجربةً مميزة.

تم تجميع الأطفال في المدرسة الابتدائية التي حصل الشيخ عبد السلام على الموافقة ببنائها خارج سور القرية، قريبةً من الجامع، وكأنه يقول: الدين والعلم للجميع.

كانت المدرسة تضم ثلاثة صفوف، فقد كان البناء يجري بإضافة صف كل سنة، بالإضافة إلى غرفة للمدير، وغرفة للمعلمين، وساحة ترابية للعب أوقات الفرص، مع مرافق صحية.

واشترط الشيخ عبد السلام على المدير أن يشرف هو على النظافة العامة.

في المدرسة التي يتداوى فيها ثمانون تلميذا كلهم يحضرون بانتظام، حريصون على أن تكون جلابياتهم نظيفةً، وفي أرجلهم نعل بلاستيكية.

كان التلاميذ وأطفال آخرون ينتظمون في طابور طويل، وهم يشعرون كأنهم في مهرجان يشاهدون فتيات غير فتيات المنطقة، يرتدين تنانير فوق الركبة، وعلى متونهن ألوان مختلفة من الشعر، بعضه مطلق تعبث به الريح، وأخريات يعقدنه ليتأرجح كذيل حصان.

ملا مهودر أمام الجامع ومؤذنه، وشباب غيرهم هنا أيضا، الجميع بالبنطلون والقميص، وأحذية تلمع.

كانوا يقفون بترقب قلق، فهم لم يتعرضوا لوخز إبر تغوص في أذرعهم، وحين خرج أول من تم تطعيمه تعلقت أنظارهم به يتفرسون في وجهه ليتعرفوا على مقدار الألم الذي يعانيه.

ابتسم التلميذ وهو يقول:

- الطهور أكثر إيلاما... لم أشعر بشيء.

انفرجت أساريرهم وبدأ همس خافت.

اقترحت فريال أن ينقسموا إلى فريقين: الطلاب يقومون بعملية التلقيح، والطالبات يقمن بزيارة نساء القرية لغرض أخذ فكرة عن حياتهُنَّ ومشاكلهُنَّ، والقيام بإجراء فحص عام، وسيكون هذا موضوعا جيدا لتقرير طبي يقدم للدكتور بيشوب.

تم تطعيم الأطفال، وتوجهوا إلى الغداء في مضيف الشيخ عبد السلام، وكان يقف إلى جانبه الشيخ عيادة بعباءته البيضاء الشفافة المطرزة حواشيها بإبريسم ذهبي.

كانت المشكلة أن المضيف يخلو من منضدة وكراس، وعلى الجميع أن يتناولوا الطعام جلوسا على الأرض.

اقترحت فك الأحزمة... ليساعد ذلك قليلًا.

على أرض المضيف ثماني صوان كبيرة، أربع منها مليئة بالرز، وأربع على كل منها ثلاث سمكات مشوية بالتنور، وكانت أرغفة الخبز ما تزال ساخنةً، وتوزعت قدور مليئة باللبن.

بعد الوجبة الكبيرة ورفع الصواني والصحون، تم تقديم القهوة العربية، وبعضهم طلب الشاي.

تملكني شعور بالرضا بعد أن وجدت جميع رفاق السفرة يلهجون بالثناء على حسن الاستقبال.

قالت سوسن

"- كان نهارا حافلا بالإنجازات، كما كانت ضيافتكم مكتملةً تماما.

في المساء كان التجمع في مضيف الشيخ عبد السلام، الذي قرر أن يتركنا لنتصرف كما نريد.

تجمعنا صفين متقابلين متكئين على وسائد صوفية عالية، وقام جوهر بإشعال النار، واضعا دلةً كبيرةً تحف بها ثلاث دلال صغيرة، وراح يطحن القهوة بهاون كبير، ويجعل من التقاء يد الهون وهي تهبط بقوة على القهوة صوتا متناغما كأنه لحن يصوغه بعناية.

كان الجميع ينصتون بدهشة ممزوجة بالإعجاب، بعض الرجال المسلحين كانوا يجلسون غير بعيد عن باب المضيف.

قلت لأحدهم أن يحضر فرطوس ليعزف بنايه.

كان من الواضح أن فرطوس يبدو منتشيا، وخمنت أنه ربما كان في بداية سهرته.

بدأ يعزف بمقدمة من لحن الحجاز، فأنصت الجميع بإعجاب، وحين توقف صفقوا له بحرارة.

قالت فريال:

- لو كنت تعرف لحن (على أد الشوق)!!!!

بدا الجميع غير مصدقين أنها تطلب لحنا ليس معرفا في هذه المناطق، لكنهم أشفقوا على فرطوس الذي ابتسم بحياء وعدل عقاله الذي تحرك وهو يهز رأسه.

قال: نعم، دكتوره

اعتدل في جلسته، وبدأ عزفا غايةً في الرقة، وكأنه يضفي على اللحن الأصلي مسحةً من الحنين تجعله أكثر طربا.

قال أحد الطلاب بانبهار:

- هذا فنان نادر

في صباح اليوم التالي كانت سفرة الهور.

كنت قد حجزت خمسة عشر مشحوفا مع من يدفعها في المساحات الخالية من القصب أو البردي.

مسالك تضيق أحيانا فلا تتسع إلا لمشحوف واحد.

كنت في المقدمة أشرح بوساطة مكبر صوت المعالم الأثرية.

كنا حين نقترب من بعض الأكمات المكتظة، تفر مجموعات من الطيور التي كانت مختبئةً أو تبحث عن الأسماك الصغيرة التي تسبح أحيانا قرب السطح.

كان الجميع مفتونين بمنظر الهور والمسالك التي تمثل متاهةً حقيقية، كما كان تنوع الطيور وألوانها مثيرا لدهشتهم.

اصطاد بعض رجالنا مجموعةً من طيور الخضيري والبط، ومجموعةً من أسماك البني والكطان، تم وضعها بأكياس كنت قد اشتريتها من الناصرية لهذا الغرض.

في غمرة انشغالي بتفاصيل السفرة، تخوفا من أن يستغل بعض الطلاب أية فجوة للسخرية مني، لم أولي سوسن معاملةً خاصةً.

لكن ما خفف مرارة الطعم في فمي هو أنها كانت مرحةً، ونظرات الرضا في عينيها كأن نجاح السفرة وعودة الجميع وهم يحملون ذكريات مفعمةً بالبهجة أمر يهمها أيضا.

فاجأتنا سوسن وهي تقول:

"- أعتقد أن من الأصول أن نزور قبر هيّال الجد، الرجل الذي أنشأ هذه القرية وهذا المجتمع.

بعد قراءة الفاتحة، همست سوسن قائلةً:

- أنت تحمل مواصفات جدك... الإصرار، والجدية، ووضوح الرؤية.

بعد الظهر أخذنا الباص إلى بغداد. وبينما كنا ندخل الناصرية، وعند مدخل الشارع المؤدي إلى الساحة المقابلة للمتصرفية، أوقفنا شرطيان. صعد أحدهما، وبعد السلام قال:

- سيادة المتصرف طلب أن تقابلوه.

كانت على واجهة الباص وخلفه لافتتان كتب عليهما:

(وفد كلية الطب إلى قرية آلبو هيّال)

لكن الشرطي لم يصغ إلى احتجاجاتنا ولا إلى تذرعنا بضيق الوقت وطول الطريق.

أمام باب المتصرفية تجمع بعض المارة يتطلعون بفضول إلى المجموعة التي تتوجه إلى دار الحكومة، ولا سيما أن فيها عددًا من الفتيات يرتدين تنانير قصيرة وقمصانا مفتوحة، تملأ وجوهَهُنَّ نظرات استغراب ودهشة من أعين الناس.

قادنا الشرطي عبر ممر على جانبيه غرف مفتوحة الأبواب،، وقف الموظفون يتطلعون نحونا بشيء من الفضول.

في نهاية الممر، كان باب خشبي منقوش يقف أمامه رجل يرتدي لباس أهل الناصرية، قال بأدب:

-سأعلم سيادة المتصرف.-

خـرج المتصـرف بعـد لحظـات، يرحـب بنـا بحـرارة ويؤكد رغبته في لقائنا. قال مبتسما:

-أهلًا بكوكبة العلم والخدمة الإنسانية-

فاجأنا بلطفه، وإن كنت قد ظننت في بادئ الأمر أن في كلامه سخريةً مبطنة، لكن ابتسامته الودودة بددت ذلك الظن. صافحنا ثم أشار لنا بالجلوس وقال:

- لا أخفيكم عتبي عليكم، وخصوصا على الشيخ جواد.

ثم ابتسم بمودة وتابع

- هل تفضل أن أدعوك بالدكتور؟

لم يمهلني للإجابة، وأردف ضاحكا:

- دكتور في بغداد، وشيخ في الناصرية

قلت

- كما يشاء سعادتكم، ولكننا نستغرب عتبكم!

أمر بتقديم الشاي لنا، ثم قال وهو يقلب فنجانه بين يديه

- عتبي لأنكم لم تزورونا ونحن في الطريق قبل آل هيّال

قلت:

- سعادتكم يعلم أن زيارتنا مهمة طبية، ومدة إقامتنا محدودة.

ابتسم المتصرف وقال بنبرة تصالحية

- لأكون راضيا وأرفع العتب ونبقى حبايب، أرجو أن تقوموا بإعطاء اللقاح لعدد من طلاب مدارس المتصرفية... بالطبع ستكونون ضيوفنا.

قال الطالب عبد الخالق، المسؤول عن لجنة تنظيم السفرة:

- أولا، يشرفنا هذا الاهتمام بنا، ويسعدنا أن نجد مسؤولا يفكر بالآخرين، ولكن يؤسفنا عدم إمكانية تنفيذ ما تطلبونه، لأن اللقاح قد نفد.

ارتسمت سحابة خفيفة على وجه المتصرف، ثم قال برصانة

أتفهم ذلك... ما رأيكم أن نتناول الغداء سويةً، ثم تغادرون؟

قلت:

"- كما تعلمون سيادتكم، الطريق طويل، ولا نريد أن نكون في الباص طوال الليل.

قال مبتسما:

- قصدكم أن نكتفي بالشاي إذًا

وحين نهضنا لتوديعه، أصر على مرافقتنا حتى صعودنا إلى الباص.

ما إن خرجنا من حدود المتصرفية إلى الشارع الخارجي حتى بدأ الجميع بالغناء، ربما لإضفاء شيء من البهجة على الطريق الطويل الممتد وسط المساحات الرملية الموحشة.

قبل أن نصل الحلة، قال السائق وهو يلتفت نحونا:

"هل ترغبون بالاستراحة لنصف ساعة؟ كما أود أن أذكركم بمطعم أبي نعيمة الذي يقدم تشريب لحم ليس له مثيل في العراق، لأنه يستخدم الطماطم التي يزرعها خلف المطعم"!

وافق الجميع على الفور.

كان الليل يهبط على بساتين الحلة بسكون ساحر يملأ الأفق رهبةً وجمالا. وبينما نمضي بمحاذاة سياج يلف أحد البساتين، ومضت بين الأغصان حركة مفاجئة، ففرت طيور صغيرة لا نستطيع تمييزها، كأنها ظلال بيضاء تذوب في عتمة المساء، ثم يعود السكون بعدها كأن شيئا لم يكن... سوى عبير النخيل يهمس في قلب الليل، حارسا سر الحلة النائمة.

كان مطعم أبو نعيمة يقع على الشارع قبل الدخول إلى المدينة، بناءً منخفضًا بباب واسع. عند المدخل جلس أبو نعيمة نفسه، رجل ممتلئ ذو وجه أسمر مكتنز ولحية مشذبة، على رأسه يشماغ بلا عقال، وبيده مسبحة صفراء. جلس وراء منضدة حديدية مغطاة بشرشف أزرق سميك، عليها علبة كبيرة فيها ورق تنشيف، وبجانبها صحن مملوء بعيدان تنظيف الأسنان. كان أبو نعيمة يستلم النقود بنفسه بعد أن يخبره العامل بالمبلغ.

حين ترجلنا من الباص متعبين من الجلوس الطويل ومن الغناء والنكات، نهض أبو نعيمة مرحبا، وبدا كرشه يرفع جلابيته قليلا وهو يقول بصوته الجنوبي العميق:

- من أية كلية الشباب؟

أجابه أحدنا ضاحكًا: "كلية الطب"

قال أبو نعيمة بعفوية بدت كأنها تطير خفيف:

"- الله الساتر!"

ثم أضاف مازحا:

"- يوم ابني صقر يدخل كلية الطب"

ضحك الجميع، فأجاب هو بفخر:

- ابني الكبير سعدون في الهندسة، وراح يبني أكبر مطعم في الحلة.

قال السائق:

- أبـو نعيمـة، أنـا جئـت بـالإخوان ليتـذوقوا تشـريب مطعمكم.

نادى أبو نعيمة بصوت عال

- قاسم

أجابه صوت من الداخل

- نعم، أستادي.

قال:

- أنت مسؤول عن تشريب الجماعة... أكثر من اللحم

ضحكنا جميعا، ورد قاسم بحماس:

- حاضر، أستادي

بعـد التشـريب، كـان الشـاي برائحـة الهيـل... دافئـا مثـل وداع مؤقت.

حين عدنا إلى الباص كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ليلا. بعث فينا تشريب أبو نعيمة استرخاءً وتكاسلا، وخيم صمت طويل على الجميع.

فجـأةً، اختـرق السـكون صـوت مـذيع "مـونتي كـارلو" وهـو يتحـدث بنبـرة عاليـة عـن مصـادمات فـي بغـداد بـين الشـرطة ونقابـة السـائقين وبعـض المجموعـات مـن طلبـة

العاصمة، احتجاجا على رفع حكومة عبد الكريم قاسم أسعار البنزين.

فجأةً تغير جو الباص.

وما إن استوعبنا الخبر، حتى تبدل المشهد. كل ما كان مشتركا من الضحكات، وكل العيون التي كانت تبرق بالمرح، انطفأت شيئا فشيئا.

ارتفعت الأصوات، وبدأ النقاش يحتد، ثم تحول دفء الود إلى جفاء بارد. كل يدافع عن رأيه كأنما يدافع عن وطن مهدد، وكأن الآخر خصم لا شريك حوار.

وفي زوايا الباص جلس الصمت حائرا، يراقب كيف تمزق الخيط الذي جمعهم قبل قليل.

لم يتغير المكان، ولا الأشخاص، بل تغيرت المسافة بين القناعات.

وعندما توقف الباص أمام باب كلية الطب، نزل الركاب فرادى، كل منهم يحمل في قلبه شيئا من الغبار، وذكرى قصيرة عن رحلة كان يمكن أن تبقى جميلة... لولا أن حضرت السياسة.

الفصل الثامن

توقف المطر، وشجرة الصفصاف كفت عن النواح حين غادرتها رياح شمالية، وبدا نهار مشرق.

لكن جواد كان متوجسا، يشعر بتوتر غامض؛ فما زالت معارك الأمس في الحديقة الخلفية لكلية الطب تثير في نفسه حزنا مريرا.

حين رن جرس الدخول إلى الصفوف، وقف بعض الطلبة في مداخل الممرات وأمام أبواب القاعات يدعون إلى الإضراب. وحين تمر مجموعة إلى صفها، تتغير اللهجة إلى نبرة حادة، تتخللها الشتائم أو كلمات بذيئة.

لم يستطع جواد الدخول. وقفت إلى جانبه سوسن، ثم سحبته إلى الخارج بعد أن بدأ التلويح بالعصي.

وهما يخرجان إلى سيارة سوسن المركونة قرب الباب الرئيس للكلية، كان جواد يتمتم كأنه يقرأ قصيدة:

- بغداد... آه يا وجع المدن القديمة،
كم غيرت فيك الأيام ملامح الصباح.
كانت شمسك تشرق ذات يوم على دفاتر مفتوحة،
على وجوه حالمة بمستقبل من نور،
أما اليوم، فالشمس نفسها تخرج متعبة،

تتعثر بين هتاف وصدى عصا تلوح في الهواء.

في باحات الكليات، كانت الأشجار تنصت للحروف وهي تتناثر من أفواه الطلبة، واليوم تنحني الأغصان خجلا، إذ تحولت عصيها إلى أدوات وجع.

العلم الذي كان ضواءً على المكاتب، صار رمادا يتطاير مع صراخ الجموع.

القوميون يرفعون شعاراتهم كمن يرفع رايةً في معركة لا تنتهي، والشيوعيون يدخلون القاعات بخطى ثابتة ولكن مترقبة، كأنهم يسيرون نحو درس أخير في معنى الصمود.

كلاهما يؤمن بوطن، لكن الوطن نفسه يقف مذهولا على العتبة،

يسأل: من منكما أنا؟

الأساتذة يراقبون من النوافذ،

عيونهم مثل مرايا قديمة، ترى ولا تقول،

بينما الحدائق التي شهدت أول قصص الحب

تصغي الآن لأنين الأرض تحت أقدام المتصارعين.

وبين الركام، بقيت ورقة صغيرة ملوثة بالتراب،

عليها خط مرتجف كتب

(غدًا... ستعود بغداد كما كانت).

لكن الغد مر... ولم تعد.

قال جواد بصوت مثقل بالشجن:

- إلى أين نذهب

أجابته سوسن وهي تشغل السيارة:

إلى مقهى البرازيلية... ثم إلى مطعم عمو إلياس.-

ابتسم جواد بمرارة:

- وإلى أين يذهب العراق؟

التفتت نحوه، وعلى شفتيها ابتسامة باهتة

- هذا لا يعرفه إلا الله... والسفارة البريطانية، ومن المؤسف أننا لا نستطيع التوجه إلى أي منهما.

أمن على قولها بإيماءة صامتة.

كانت سوسن ترتدي ملابس بألوان هادئة، على ما كان يعرف حينها بـ(الأناقة المهملة). انتبه جواد إلى أنها اليوم تضع حول عنقها سلسالًا ذهبيا تتدلى في نهايته قطعة حجر بلون أزرق (فيروزة) صاف على صدرها الناهد.

لم تكن سوسن ممن يلفتن الأنظار من اللقاء الأول؛ فملابسها الهادئة تتحدث بلغة لا يسمعها إلا من يجيد الإصغاء.

قالت وهي تبتسم

- ولكن لن نتحدث عن سارتر اليوم.

قال جواد

- بغداد اليوم تسبق فلسفة سارتر؛ فالوجود لن يفضي إلى العدم... بغداد ستعود.

قالت بهدوء:

- ربما

كانت رائحة القهوة تنتشر في أرجاء المقهى بكثافة مألوفة، تمتزج برنين الملاعق في الفناجين وصوت آلة التحميص في الزاوية. الهواء دافئ، مشبع ببخار خفيف يحمل معه نكهة البن المحمص وحديث الزبائن المتقطع، حديث له نكهة خاصة لا تجدها إلا في حوارات مثقفي بغداد.

على الطاولات أكواب نصف ممتلئة، وجرائد مفتوحة على أخبار قديمة، ووجوه شاردة تتأمل ما خلف الزجاج في شارع الرشيد. بدا المكان كأنه يعيش على إيقاع القهوة؛ لا يبدأ نهاره إلا برائحتها، ولا يهدأ إلا حين تخف حدتها في المساء.

طلبت سوسن كأسا كبيرا من القهوة، فيما طلب جواد إبريقا من الشاي، لا ليطفئ عطشه، بل ليوقظ في داخله سكونا نسيه منذ زمن.

أمسك الكوب بكلتا يديه كأنما يحتضن دفء الأيام الجميلة التي مضت، وارتشف رشفةً بطيئة.

امتزج طعم الشاي بطعم الطمأنينة، وتلاشى ضجيج العالم خلف جدران تلك اللحظة الصغيرة. ابتعد صراخ الشارع وصراع طلبة الطب.

ابتسم بهدوء وقال في سره:

كم هو بسيط هذا الرضا... وكم يتطلب منا أن نتوقف قليلا فقط لنسمع صوته.

قال جواد وهو ينظر إلى صدرها:

- جميل هذا السلسال، وخصوصا الفيروز.

ابتسمت وقالت:

الجميل أنك انتبهت إليه.-

قال بخجل خفيف:

- عفوا... لقد بدأت أنتبه إلى أشياء بسيطة، ولكنها مهمة

قالت وهي ترفع فنجانها الكبير بين يديها:

- أن تبدأ، مسألة غاية في الأهمية... لكن الأهم، إلى أين تريد أن تصل؟

كانت تجلس متزنةً، تمسك فنجان القهوة بكلتا يديها، يتصاعد منه بخار ساحر..

ردد جواد لم أكن أعرف أن الحب قادر على أن يغير في المرء شيئا عميقا. كانت تتحدث بخفة، كأنها لا تنتمي إلى المكان على الرغم من رومانسيته. أشعر بشيء يتحرك في صدري، لا هو نبض ولا هو خوف، بل مزيج من الدهشة والسكينة، كأن قلبي تذكر فجأةً كيف يكون حيا.

ربما كان ذلك ينمو ببطء، وأنا أراها كل يوم.

كل مرة تبتسم فيها، كنت أشعر كأنني أملك العالم للحظة واحدة. كنت أعود إلى غرفتي في القسم الداخلي محملا برائحتها العالقة في الهواء، أراجع المواقف الصغيرة كأنها فصول رواية عظيمة.

كانت مشاعري تسير نحوها كما يسير الضوء إلى نافذته.

ربما لم تدر يوما بما تركته فيَّ من أثر وفكر.

الأجمل من الحب هو وعي الحب؛ وعي تلك المشاعر الناعمة وهي تتمدد في فكرك وفي جسدك، فتبعث لذةً تجعلك تستشعر بالقشعريرة..

كانت بغداد مدينة البدايات... وبداية هذه المشاعر كانت كافيةً لأحب الحياة أكثر.

قالت سوسن بابتسامة دافئة:

- النهايات محكومة بالمقدمات.

ابتسم بود وقال بصوت خافت:

"- وربما... بالمصادفات أيضا

- ربما".

امتزج طعم الشاي بطعم الطمأنينة، وتلاشى ضجيج العالم خلف جدران تلك اللحظة الصغيرة. ابتعد صراخ الشارع وصراع طلبة الطب.

الفصل التاسع

كان من نصيبي أنا وسوسن وفريال أن يكون مجال تمريننا العملي في مستشفى كلية الطب.

فقد كنت الأول على الدفعة، وكانت فريال الثانية وسوسن الثالثة.

وقد استغربنا جميعا تفوق فريال، ولكنها أثبتت أنها عند الجد فتاة أخرى.

كان ذلك موضع ارتياحي، فسوسن ستكون معي طوال النهار وفي الخفارات المناوبة، ويحيى جري إرساله إلى مستشفى الديوانية، وهذا يعني أنه لن يكون في بغداد.

اتصل والدي من الناصرية يهنئني بالتفوق، لكنه أسف لأني لم أنسب إلى الناصرية.

وبعد ثلاثة أيام استلمت رسالته:

- بغداد كبيرة يا ولدي... فيها المجد، نعم، لكن فيها الوحدة أيضا

لم أقل له إن مخططاتي مغايرة؛ فأنا أحلم بإكمال دراستي العليا في إنكلترا، وفي الحقيقة كنت قد بدأت اتصالاتي بالدكتور بيشوب، الذي شجعني وقال إنه سيعمل جهده لأجل قبولي في جامعة لندن.

كان هذا الحلم أكبر طموح عاشه سنين طويلةً، ولكنه لم يصرح به لأحد، وحين استلم رد الدكتور بيشوب، شعر بأنه تحول إلى حلم يقظة يلازمه حتى في ردهات المرضى.

قالت سوسن، وهي تضع كلتا يديها على الطاولة وقد ارتسم على وجهها انطباع ساخر:

- لدي معلومة... يمكن أن تسميها خبرا أيضا.

- أسمعك.

- اليوم الأربعاء، السادس من شباط... تذكر هذا التاريخ لأنه مهم جدا.

يوم عادي، لم يحدث شيء في المستشفى، وحتى الآن كل شيء هادئ في الميدان الغربي!

- ربما في الميدان الغربي، ولكن في بيت السيدة فرح، التي هي أمي، حدث ما يجب تسجيله

- خيرا إن شاء الله؟

لا، ليس خيرا من كل الوجوه.

حسنا، ماذا حدث؟

- وأنا أهم بالخروج صباحًا، نادتني أمي لتحادثني بأمر هام. بعد أن جلست على مضض قالت إن الدكتور يحيى زارها أمس مساءً وأعرب لها عن رغبته في خطبتي.

شعرت بذات الوخزة في جنبي، ولكن على نحو أشد إيلاما. ربما كان في عيني شيء من الألم، فقد شعرت بحرقة، وخمنت أنهما قد احتقنتا بالدم، إذ رأيت نظرة فزع في عينيها وهي تتطلع إلي.

قالت سوسن:

- اطمئن، لقد قلت لها بصراحة إني لا أشعر ميلا نحوه، وإن في ذهني رجلا آخر. قالت: الشيخ؟ قلت: نعم. قالت: براحتك، فأنا أثق بقراراتك يا دكتورة سوسن، وسأبلغه أن لا نصيب.

شعرت باسترخاء لذيذ، وفطنت إلى أن ضغط الأحداث يفرض تغييرا في خططنا.

قلت:

- أنت تعلمين رغبتي في استكمال دراستي العليا في إنكلترا، وتعلمين أني راسلت الدكتور بيشوب، أستاذنا السابق، وأمس استلمت رسالةً مشجعةً منه ووعدا بالمساعدة.

والمهم؟

- بحكم ما حصل، المهم عندك.

- كيف عندي؟

- هل توافقين أن تكوني رفيقتي إلى لندن؟

نعم، بشرط أن أكمل دراستي في الأورام السرطانية. كان أبي يتمنى أمرين قبل أن يموت: الأول أن يراني دكتوره وأسهم في علاجه، والثاني أن يراني عروسا.,

غام نظرها قليلًا وتنهدت بأسًى.

- لكنه لم ير الاثنين.

- رحمه الله. إذًا؟

-إذًا ماذا؟

- سأكون مساء الغد عندكم. أرجو أن يكون باسل والوالدة موجودين.

كانت ابتسامتها عريضةً، قد ملأت وجهها كله، وأمسكت بفنجان القهوة بكلتا يديها تفرغ طاقة الفرح التي انتابتها.

في اليوم التالي ذهبت إلى المنصور لشراء باقة ورد مناسبة، وإلى الكرادة لشراء علبة حلويات منوعة

كانت غرفة الاستقبال معدةً بعناية لحدث استثنائي. الشراشف على الأرائك بلون وردي زاه، والمساند عليها صور شرقية، والمنضدة التي تتوسط الغرفة عليها شرشف أبيض مطرز، وفوقه باقة ورد جعلتني أشعر بالإحراج من التي معي.

أمها كانت بأناقتها المعتادة، وباسل وزوجته يبتسمان بود. كان منظر الاستقبال مشجعا، مما أبعد عني الشعور بالحرج.

جرى التوصل إلى اتفاق مبدئي على الخطبة، وأن يجرى عقد القران عند حصول الموافقة على سفرنا إلى لندن.

أرسلت برقيةً إلى أبي.

قلت:

- غدًا الجمعة، يمكن أن نذهب إلى أحد معارفكم من الصاغة لشراء ما يلزم.

قالت أم سوسن:

- هذه مهمتكم.

قال باسل:

- مساء الجمعة انعقاد مجلس إدارة الشركة، وبصفتي المدير العام فوجودي ملزم.

قالت زوجة باسل:

- أنا الوحيدة التي ليس وراءها شيء... يسعدني أن أكون معكما.

تناولنا عشاءً خفيفًا، وأصرت سوسن أن توصلني إلى سكني في مدينة الطب.

قلت:

- لا داع، الطريق مزدحم وأنت متعبة.

لكنها ابتسمت وقالت بصوت حاولت أن تجعله ثابتا:

- أحب أن أراك وأنت تمضي إلى حلمك... لعلي أتعلم كيف أثبت في طريقي أيضًا.

جلسنا في السيارة، وصوت المحرك يختلط بذكرياتنا الأولى. كانت تنظر من النافذة تراقب ضوء المصابيح ينعكس على الزجاج، ربما كانت تستعرض الطريق إلى لندن.

حين وصلنا إلى باب الكلية، التفت إليها شاكرا، فابتسمت وقالت:

- اعتنِ بنفسك... فالعلم عظيم، لكنه لا يغني عن القلب.

وأنا أدلف من الباب الرئيس، وقف الحارس يستقبلني بابتسامة مجاملة

أهلًا دكتور.

حين التفت كانت سوسن في السيارة تنظر إلى البوابة الكبيرة، فيما بدا أنها تتمتم:

لعل الحب امتحان آخر... أصعب من كلية الطب.

حين دخلت إلى غرفتي شعرت أن في كل زاوية يشع نور خافت دافئ، كأن الأشياء من حولي تعرف ما حدث، وتبارك لي بصمتها.

الكتب المكدسة على الطاولة لم تعد تبدو ثقيلةً، والستارة التي كانت تحجب ضوء الصباح صارت ترقص مع النسيم بخفة غير مألوفة، حتى رائحة القهوة التي أعدها كل يوم بدت مختلفةً، كأنها تعرف أن شيئا جميلا استقر في داخلي.

في أعماقي سكن هدوء ساحر، ناعم الملمس، يشبه الغيوم حين تتهادى في سماء صافية. شعرت أني أخف من الهواء، وكأن قلبي امتلك جناحين يرفرفان بالطمأنينة.

لم يكن الأمر مجرد فرح بالارتباط، بل إحساس بالاكتمال... كأن كل الطرق التي سرت فيها من قبل كانت تقودني إلى هذه اللحظة تحديدا، إلى هذا السكون المضيء الذي يملئني الآن.

اتصلت بعمي عبد الكريم في الناصرية أسأله عن أبي، فقال بصوت فيه رنة أسًى:

الشيخ عبد السلام عندنا منذ أسبوع ليتابع علاجه من النقرس. قدماه متورمتان، ويصعب عليه المشي.

قال أبي بصوته الأجش الذي أثقله التعب ومعاناة الألم:

أنا بخير، والعلاج ماشي، ولكن ما زلت لا أقدر على المشي، وأعتذر أني لست معك في الخطبة.

قلت له:

- مساء الغد سأكون عندكم.

لم يعلق.

اتصلت بسوسن لأعلمها أني مغادر مساء الجمعة للوقوف على الحالة الصحية لأبي.

قالت:

- سأكون معك.

- لا أحبذ ذلك، فالطريق طويل ومتعب.

سنذهب بسيارتي.

- سيارتك لشوارع بغداد

- أنت تستخف بالفولكس فاغن

- لا تضعيني في مواجهة ألمانيا الغربية

ضحكت وقالت - حسنا نذهب بالقطار

- لا... لدي معرفة بمسؤول أمانة العاصمة المشرف على كراج النهضة وسأتصل به ليؤمن سيارة من الكراج بمعرفته،

قالت:- سأكون عندك في العاشرة

كانت غيوم تعبر السماء التي بدت مساحتها و كأنها تضيق وأنا أتطلع نحوها من الشباك في غرفتي

كنت موزعا بين القلق والخوف على صحة والدي، كان صوته يعيش في ذهني ويحفر في قلبي وجعا لا يوصف، صوته الضعيف أيقظ في داخلي كل خوف دفين

لم أكن أجد راحة في أي شيء، حتى غرفتي التي كنت ألوذ إليها من تعب الأيام صارت تضيق بي.، كل زاوية تهمس بالأسى.

وفي خضم هذا الثقل الذي كان يطوّق صدري، كان لسفر خطيبتي معي معنى آخر، كأن القدر أرسلها في الوقت المناسب لتخفف عني ما لا يخفف.

مرافقتها كانت طوق نجاة وسط بحر من الاضطراب.

وهكذا، بين خوف على والدي وامتنان لخطيبتي، فهمت معنى الحضور الإنساني العميق، ذلك الذي لا يُعد بشيء، لكنه يمنحك كل شيء دون أن يتكلم.

اتصلت بصديقي في أمانة العاصمة، قال بانه سيرد علي بعد نصف ساعة ،تم تامين سيارة حديثة تأتيني في العاشرة، شعرت بالتعب فاستلقيت على سريري بكامل ملابسي.

كان الفجر يتهامس على أطراف بغداد، يمد خيوطه المرتجفة فوق أسطح البيوت كأنه يواسيها بعد ليل طويل. وقفنا عند سلم الطائرة، والهواء يحمل رائحة مطر قديم امتزج بصوت المآذن البعيد.

كانت نظراتنا تتقاطع بين السماء والأرض، بين الرحيل والبقاء. أصابعنا تتشابك بصمت يعرف أن الوداع أحيانا لا يقال بالكلمات، بل بنبضة تتردد بين راحة اليدين.

من أعلى السلم، بدت بغداد كمدينة نائمة على صدر الفجر، يتسلل إليها الضوء ببطء خجول، كأنه يخشى أن يوقظ أحلامها المنسية. كانت المدينة هناك، ساكنة، كأنها تنتظر وعدا بالعودة.

قالت سوسن بصوت خافت:

- سنعود، أليس كذلك؟

ابتسمتُ دون جواب، وأنا أعلم أن كل سفر يحمل في طياته وعدا بالرجوع، وإن لم يتحقق.

ادرنا وجهينا نحو الطائرة، نحو الغيم، نحو لندن البعيدة التي تنتظرنا ببرودها الأنيق، لكن في القلب ظل دفء بغداد يشتعل، كجمرة لا تطفئها المسافات.

استيقظت على صوت غريب، فرقعة حركت الأثاث في غرفتي المطلة على الحديقة التي يفصلها عن وزارة

الدفاع شارع عريض فقط ،حين خرجت كان المذياع المنطلق من غرفة زميلي يصرخ بصوت ثابت (أيها الشعب العراقي الكريم).

من سطح المستشفى كنت ومجموعة من الأطباء نشاهد جماهير تركض في باب المعظم واصوات مختلطة غير واضحة ولكن نبرتها كانت غاضبة تتصاعد بوتيرة متصلة فيما ثلاث دبابات تزاحم الجمهور للوصول الى وزارة الدفاع.

حين عدت الى غرفتي كان رنين الهاتف متواصلا ،كانت سوسن على الجانب الآخر.

- هل علمت بما يجري

- نعم.. واضح ان حركة انقلابية تشق طريقا الى سماء بغداد

- صحيح قيادتها من حزب البعث... ماذا عن السفر الى الناصرية؟

- في مثل هذه الظروف السفر متعذر

الفصل العاشر

كانت بغداد بعد بضعة أيام فقط، تبدو وكأنها خرجت من حلم ثقيل.

هدأ أزيز الرصاص، وتلاشت أصوات الهتاف التي كانت تمزق السماء، وباتت المدينة تغسل وجهها بالصمت.

من شباك غرفته في مدينة الطب وقف جواد يراقب الشارع الخالي.

بالأمس فقط كان يرى الحشود تمر من هنا، تهتف، وتركض، وتبكي.

واليوم... لا شيء سوى الغبار يدور في حلقة صامتة.

من بعيد مرت شاحنة للحرس القومي، يعلوها رشاش صغير، والجنود يحدقون بوجوه متجهمة.

شعر جواد بوخزة في صدره، ليس خوفا فقط، بل إحساسا غامضا بأن شيئا في المدينة انكسر، ولن يصلح قريبا.

قالت سوسن على الهاتف:

- سكتوا؟

- سكتوا... لكن هذا السكوت يبعث على الخوف أكثر من الرصاص.

- الله يستر... حين تسكت الناس، تتكلم الجدران

في الخارج، كانت بغداد تتنفس بصعوبة.

الدخان لم يزل يعلو من بعض الأبنية، واللافتات الممزقة تتدلى من الأسلاك كأطراف واهنة لحلم قتل في منتصف الطريق.

سيطر الحرس القومي وبعض ألوية الجيش على المدينة، لكنها لم تعد تلك المدينة ذاتها.

كانت تشبه امرأةً خرجت من معركة خاسرة، تمسح دموعها وتخفي جراحها بثوب من صمت ثقيل.

وستظل الذاكرة العراقية مثقلةً بمشاهد عنف لن ترحل عنها.

في اليوم السابع، عادت الحياة إلى مجراها.

المراجعون يصطفون عند بوابة مدينة الطب، لا يتحدثون عما يعانونه، ولا عن شحة الدواء، أو مشاكل الانتقال صباحا من أطراف بغداد إلى المدينة الطبية.

كانوا يتناقلون الإشاعات وأحاديث اختلقوها في باصات مصلحة نقل الركاب:

كيف أمر عبد السلام بقتل الزعيم، وما الذي يجري في أقبية قصر النهاية أو النادي الأولمبي، عن بطولات تحت التعذيب، وانهيارات مخجلة.

قالت سوسن، وهي تشد قميصها الذي انفتح صدره قليلًا:

- هل نقول لأحلامنا وداعا؟

- لا... الأحلام لا تموت، ولكن قد تؤجل. برنامجنا كما هو، وقد تكلم معي الدكتور بيشوب بأنه تم قبولنا على الماجستير. مهمتنا الآن أن نحسن لغتنا الإنكليزية؛ فأنا لا أرغب بقضاء ولو بضعة أشهر في تعلمها في لندن.

ابتسمت سوسن وهي تشعر بالزهو.

كان جواد يضع كل طموحاته في السفر وأن يحصل على التخصص وأن تكون سوسن معه.

يبتعد عن التفكير بما يجري في واقع لم يعد عقلانيا، ولا يخضع لأي قانون معروف

تذكر مقولة أنجو سعد لقد هلك سعيد، ظلت ممسكة بحلمه.

وكان، وهو يدخل بيت سوسن، كمن يبحث عن ملامح حلم ضاع بين الركام.

منذ زمن، وهو يحلم بمدينة تضاء بالمعرفة لا بالنيران، بشوارع تمتلئ بالضحك لا بالجنود.

لكن الواقع من حوله كان يزداد غرابةً يوما بعد آخر، حتى صار يشك إن كان ما يراه يقظةً أم كابوسا طويلاً لم ينته بعد.

كل صباح، حين يخرج من غرفته، يرى بغداد تضع وجها جديدا؛ أحيانا حنونةً كأم حزينة، وأحيانا قاسيةً كحارس لا يعرف الرحمة.

اللافتات الممزقة، الجدران الملطخة، العيون التي لا تنظر في العيون... كل شيء فيها كان يروي حكايةً عن زمن فقد اتزانه.

لكن جوادا لم يكن مثل الآخرين.

في داخله وميض حلم عن وطن يكتب فيه الشعر بلا خوف، وتزرع فيه الأشجار بدل البنادق.

وحين تسأله سوسن:

- متى يتحقق حلمنا؟

كان يبتسم ويقول

- حين نتوقف عن الخوف من الضوء.

في المساء، كان يراقب ضفة دجلة، ويتابع انعكاس الأضواء المرتعشة فوق الماء.

يشعر أن النهر وحده يفهمه، وأنه ما زال يحتفظ بأسرار المدينة القديمة، حين كان الناس يغنون بدل أن يصرخوا.

ربما كان الحلم بعيدا، وربما كانت العجائب التي تملأ الواقع أكبر من قدرته على الفهم، لكنه ظل متمسكا بجمرة صغيرة في قلبه

جمرة اسمها الأمل

يبدو أن جوادا لم تتضح له بعد رؤية ما يمكن أن يعانيه أو يواجهه.

كان في غرفة الأطباء يستريح بعد جولة في ردهات المرضى، وكانت سوسن في يوم استراحتها.

استأذنت الممرضة وقالت:

- عفوًا، دكتور جواد، الجماعة يطلبون مقابلتك.

كان «الجماعة» قد توسطوا الغرفة؛ ثلاثة من الحرس القومي، على خصر كل منهم مسدس كبير.

أحدها يشبه الذي كان عند الشيخ عبد السلام في قرية آل هيّال، قال يومها إنه صناعة تركية.

قال أحدهم:

دكتور جواد، مطلوب حضورك في مركز الحرس القومي.

فوجئ، وبدت عليه دهشة ملأت وجهه، فيما لم يبد من في الغرفة أي رد فعل، ربما بدافع الخوف من تهمة التعاطف.

لم يسأل لماذا. نهض، ليحيطوا به، ومشوا جميعا خارج المستشفى، حيث كانت سيارة بالانتظار.

لم يتبادلوا أي حديث.

فتح أحدهم الباب الخلفي، وطلب منه أن يجلس وسط المقعد، وجلس اثنان على جانبيه، والثالث بجوار السائق.

كانت السيارة مظللةً.

أخرج الذي عن يمينه قطعة قماش سوداء، وطلب منه أن يحني رأسه قليلًا، ثم عصب عينيه بإحكام.

شعر أنه ينفصل عن العالم.

لم يفهم كيف تحول الضوء إلى عتمة بهذه السرعة.

قبل لحظات فقط كان يجلس ويشعر كأنه يسير نحو غد حلم به طويلًا، يحمل في قلبه ضحكةً مؤجلةً وأمنيةً نضجت على مهل.

كان يشعر أن الحياة أخيرا تصغي إليه، وأنه سيستكمل مع سوسن ما بدأه هيّال العرباوي.

ثم، في لحظة غريبة بلا مبرر، وجد نفسه بين أيد غليظة، يساق إلى مكان لا يعرفه.

يسأله عقله ألف سؤال، ولا تأتي أي إجابة.

ارتجف قلبه، لا خوفًا فحسب، بل دهشةً من ظلم لا اسم له.

تهاوت أحلامه حوله كأوراق شجر ذابل، وراح يتساءل:

أبهذا الشكل يعاقب الضوء حين يجرؤ على الحلم

لكن في أعمق أعماقه، بقي بصيص صغير من الإيمان، يهمس له بأن الفجر لا بد أن يعود، ولو تأخر، وأن الحقيقة تعرف طريقها، حتى وسط جدران الصمت والظلم.

همس السائق

- الى النهاية أم إلى الأولمبي؟

قال الجالس إلى جنبه:

- الأولمبي.

بعد مسيرة مشحونة بالتوتر والألم، وصلوا إلى المكان.

نزل الذي على يمين جواد، وأمسك بذراعه وسحبه بقوة وبغلظة تناقضان ما بدآه من لهجة رقيقة.

شعر جواد أن ساعة الجد بدأت، وأن عليه أن يتماسك ليعرف سبب اعتقاله.

كان يعرف جيدا أنه لم يرتكب ما يمكن أن يعد ذريعةً لذلك، لكنه كان يعرف أيضا أنه يمكن اتهامه بما يرونه مناسبا، وأن الإقرار بالتهمة يتكفل به أسلوب التعذيب.

قال الذي يمسك به بلهجة حادة:

- اجلس.

ثم أضاف بعد لحظة قصيرة:

- على الأرض... إلا إذا رغبت أن تظل واقفا.

سمع جلبةً في الممر، خطوات مسرعةً، وأصوات رجال يتحركون بعصبية.

قال أحدهم:

- هل جاؤوا به؟

لم يرد أحد.

مضى وقت طويل دون أن يفكوا العصابة عن عينيه.

شعر بالتعب وبألم في ساقيه، فاتكأ على الحائط، وببطء استقر على الأرض مادا ساقيه ليريحهما.

جاءه صوت صارم

- اسحب قدميك

أطاع، فيما شعر أن الليل قد حل، فقد ازدادت العتمة كثافةً، وبدأ يسمع صراخا يأتي من أعماق المبنى.

كان الجوع قد تسلل إليه؛ لم يتناول في إفطاره سوى القهوة.

لم يعرف إلى من يوجه الكلام، فآثر الصبر.

غلبه النعاس أخيرا، فاستسلم لنوم خفيف على الأرض الباردة.

رآى في حلمه قرية آلبو هيّال، والجاموس يسير ببطء إلى الهور، ثم لندن البعيدة، وأخيرا سوسن تبكي بحرقة وقد تركت كبرياءها جانبا.

استيقظ على أصوات مختلطة:

أحذية تضرب أرض الممر بعنف، أحاديث غاضبة تتخللها شتائم، وصوت صراخ حاد لإنسان يعذب.

فكر جواد أنه مثله، معصوب العينين، تتناوب عليه الأيادي الغليظة.

ركله أحدهم في خاصرته بمقدمة الحذاء، فشعر بألم حاد وإهانة أشد من الألم نفسه.

بعد قليل جاءوه بالعشاء:

صمونة جافة، بيضة مسلوقة، وكوب شاي بارد.

اضطره الجوع إلى أن يعلسها ويمضغها ببطء حذر، كأن كل لقمة تحتاج إلى إذن.

حين ساد الصمت وانتهى من طعامه، شعر بالحاجة إلى المرافق.

قال بصوت خافت:

- أحتاج المرافق.

لم يجبه أحد.

سمع وقع خطوات تقترب، فكرر بصوت أعلى:

- أحتاج المرافق.

جاءه الرد:

- انتظر قليلاً.

في التواليت، فكت العصابة عن عينيه.

تطلع حوله، نظر إلى المرآة، تحسس وجهه.

خال له أنه لم يعد الشخص نفسه: شعره الأشعث، عيناه المنتفختان بلون أحمر، ملابسه المتسخة من نومه على الأرض.

وعلى الرغم من ما به من هوان، شعر بامتنان صغير لأنه يستطيع أن يرى ما حوله.

الذي يشغله أنه لا يعرف في أي يوم هو، وكم مضى عليه، وكيف حال سوسن، وما هي التهمة التي تنتظره.

الليل يمضي بطيئا، تتخلله صرخات مفجوعة تمزق صمته، صرخات رجال فقدوا أسماءهم.

قال رجل كان يقف قريبا منه:

- جاء دورك للاستجواب.

نهض وهو يشعر أن قلبه سيتوقف في أية لحظة.

بدت الأيام السابقة وكأنها تآكلت من ذاكرته، ولم يبقَ منها سوى طعمٍ مرٍ في فمه، ورائحة رطوبة عالقة في ثيابه.

كل ما كان يملكه هو صمته، وصدى أنفاسه التي ترتد عن الجدران.

لم يدر أيفرح لأنهم سيسمعونه أخيرا، أم يرتعب لأنهم سيتحدثون إليه بلغة الألم؟

الممر الطويل نحو غرفة التحقيق بدا أضيق من أن يتسع لأنفاسه.

كل خطوة يسمعها كأنها مطرقة تهوي على صدره.

وحين فتح الباب، انبعث ضوء ساطع أعمى عينيه، كأنهم أرادوا أن ينتزعوا بصره قبل كلماته.

جلس على الكرسي الحديدي، يداه مكبلتان، وعيناه تبحثان عن وجه لا يشبه الجدار.

كانوا ثلاثة رجال، لكنهم بدوا له كظلال داكنة.

سأله الرجل الجالس خلف الطاولة بصوت خال من الود:

هل تعرف لماذا أنت هنا؟

صمت.

لم يجد ما يقول.

الكلمات تهرب من حلقه كما تهرب الطيور من دخان النار.

عرق بارد يسري في جسده، وخوف غامض لا يستطيع أن يسميه.

في تلك اللحظة، لم يعد يطلب الحرية، ولا حتى الحقيقة...

كل ما أراده هو أن يعرف فقط: لماذا؟

- لا

تردد الصوت في ذاكرته. لقد سمعه من قبل.

هل هو يحيى؟

لكن ماذا يريد؟

بدأت عيناه تألفان الضوء والمكان.

على اليمين، عسكري برتبة رائد، شديد السمرة كأنها بقايا صدأ على وجهه، يقلب أوراقا في ملف أمامه.

في الوسط، كان الدكتور يحيى، بوجه أكثر صرامة، وعينين تومضان بحقد لم يحاول إخفاءه.

أما الثالث، فشعره مجعد ووجهه صغير لا يتناسب مع طول قامته، كأن القالب الذي صنع منه لم يكتمل.

خلفهم على الجدار لوحة زرقاء كبيرة، تستعمل في رسم الخرائط، تعلوها عبارة:

"تنظيمات الحزب الشيوعي العراقي."

قال يحيى ببرود:

- أرجو أن تكون قد استوعبت أنك أمام لجنة تحقيق مهمتها كشف أعضاء الحزب الشيوعي العراقي، مدنيين وعسكريين وتنظيماتهم المتخصصة.

قال جواد وهو يحاول السيطرة على صوته:

- وما علاقتي أنا بكل ذلك؟ أنت تعرفني، وتعرف أنني لم أنتم يوما إلى أي تنظيم سياسي.

ابتسم يحيى ابتسامةً ساخرةً وقال:

- حين زرنا الأهوار، لفت نظري أمران:

أولًا، أنك تعرف جيدًا أماكن اختباء المعادين للدولة.

وثانيًا، أن جدك، هيّال العرباوي، سبق كارل ماركس في بناء مجتمع شيوعي

شعر جواد أن التهمة باتت واضحة، وسخيفة في آن واحد، لكنها ليست سهلة الرد،.

صمت قليلاً.

قال يحيى بنبرة حاسمة:

- وقتنا ضيق، وعليك أن توفر على نفسك المشقة، وعلينا ضياع الوقت.

- أكرر وبشكل قاطع: لم أكن شيوعيا، ولم أشارك في أي نشاط حزبي.

لمعت الفكرة في رأسه فجأة

هو يحاسبني على انتمائي إلى سوسن

ابتسم على الرغم مما به من وجع.

قال العسكري بحدة:

- أشركنا

قال يحيى ببرود متعمد

- ستكون ضيفنا... إلى أن تحال إلى محكمة الثورة.

لم يرد.

كل ما خطر في ذهنه آنذاك: كيف هي سوسن الآن؟

غامت رؤيته، وسمع يحيى ينادي على الحرس القومي الواقف عند الباب

خذه إلى الزنزانة رقم ـ٣ ـ

جلس جواد على الأرض الباردة في زنزانته، محاولًا أن يلتقط أنفاسه وسط صمت ثقيل لا يقطعه إلا وقع أقدام الحراس.

لم يفهم حتى الآن كيف تحول من طبيب يعالج الناس إلى متهم بالشيوعية.

التهمة مفبركة، لكن الحقيقة لا مكان لها هنا.

كان يفكر بخطيبته كثيرا.

يتخيلها تنتظره، تمسك رسالةً لم تصل، وتقاوم الخوف بدمعة مؤجلة.

كلما تذكرها شعر بدفء صغير، سرعان ما يخبو حين يدرك المسافة بينهما، وجدران الزنزانة التي لا تسمح حتى بمرور الصوت.

تساءل: لماذا تحول النادي الرياضي إلى مركز للاعتقال؟ متى تم تغيير كل شيء؟

في رأسه تدور الأسئلة ولا إجابة.

أما حلمه بإكمال دراسته العليا في إنكلترا، فقد صار أشبه بظل بعيد.

لم يمت بعد، لكنه لم يعد واضحا كما كان.

كان يخشى أن تسرق منه الأيام ما تبقى من إيمانه بنفسه.

ومع ذلك، ظل يقول في نفسه:

إن جواد ابن الشيخ عبد السلام لا يشفى من الأمل، حتى وهو في أقسى لحظات اليأس

كان الظلام هو رفيقه في الزنزانة رقم ٣

يسمع الصافرة العسكرية ثلاث مرات في اليوم:

في الصباح، كوب شاي وقطعة جبن رخيص و"صمونة" من عمل اليوم السابق.

ظهرا، صمونة بداخلها شيش كباب وكوب شاي إجباري.

أما العشاء، فبيضة واحدة بدل الكباب أو الجبن.

بدأ جواد يحسب أيامه على مواعيد الإفطار، لكنه لم يكن متأكدا أن حسابه صحيح.

الزمن هنا بلا ملامح، يمشي ببطء شديد كأن عليه أن يعبر دجلة المليء بالماء قبل أن يصل إلى الرصافة.

لم يستدع مرةً أخرى للتحقيق، واقتنع أن لا شيء لديهم ضده.

كل الأمر، كما أيقن، اسمه سوسن.

الفصل الحادي عشر

أشعر أني أعمل عقلي في مواضيع متباينة، لا تقف عند حدود ما أعانيه من وحدة تبعث على الجنون، ولا عند مساحة المدة التي سأقضيها هنا، بل في أمور تتعلق بمستقبلي أيضا.

وأحيانا أحدث سوسن، وأشعر أني أسمعها.

كان الوقت ثابتا لدي، فالغرفة الضيقة التي يعبرها تيار ضعيف من فتحة في الباب الحديدية إلى شباك صغير، تسكنها رائحة عطنة وصمت ثقيل.

الفضلات يسمح لي بتفريغها في المرافق الصحية مرةً واحدةً في اليوم.

في البداية كان الأمر عذابا، وأتعرض للتقيؤ، والأصعب من ذلك كان الموافقة - بعد أكثر من شهرين - على توفير غيارات.

أعطيت عنوان سوسن للحرس القومي، فأرسلوا أحد منتسبيهم برسالة شفهية، إذ رفضوا أن أكتب رسالةً، حتى لو كانت مفتوحة.

أشعر في كثير من الأوقات أني أختنق؛ فالجدران الإسمنتية تنز حرارةً، وأضطر أن أبقى بالملابس الداخلية.

أمس فقط انتبهت إلى أني خسرت نصف وزني تقريبا، وأن وجهي بدت عليه بوادر شيخوخة مبكرة.

ماذا سأقول لسوسن؟

بعد أكثر من شهرين من التوسلات المذلة لتوفير غيارات داخلية، قالوا: "أعطنا عنوانا في بغداد لنتصل بهم لتأمين ما تريد".

كتبت رسالةً إلى سوسن مع عنوان منزلهم، ولكن الحرس القومي المكلف بالمهمة قال: "لا رسائل مكتوبة، العنوان فقط، أما الرسالة فشفهية".

بعد يومين أعطاني رزمةً من غيارات داخلية وبيجامتين كانتا أكبر من حجمي.

عذرت سوسن، فهي لا تعرف أني غيري الآن.

قال الحرس القومي: لقد كانت فرحةً بأنك ما تزال حيا... وجهت لي أسئلةً مختلفةً، ولكني لم أعلمها غير أنك ما تزال بانتظار المحاكمة.

ومن أجل توفير الملابس ذهبنا إلى السوق، وبعد شرائها أصرت أن نتناول الطعام في مطعم صغير.

كانت لطيفةً في تعاملها، وبدت فرحةً مع لمحة حزن عميقة.

سألته: في أي يوم نحن؟

قال: "في نهاية أكتوبر.

قلت: "من عام ١٩٦٣ نفسه؟"

استغرب بنظرة متسائلة وقال: نعم، بالتأكيد.

أتذكر حين فتح باب الزنزانة، كنت أجلس مقابل النافذة الصغيرة التي تريني أشعة الشمس، لا الشمس ذاتها.

كنت أجلس على الأرض الخشنة، أشعر بأن جسدي لم يعد جسدي، بل غلاف متعب تكدس عليه الغبار ورائحة العزلة.

كانت القطعة الملتصقة بجلدي جزءا منه، تحمل عرقه، وأنين لياليه، وصمته الطويل.

حين دخل الحارس يحمل الكيس الصغير، لم أصدق في البداية أن تلك الأشياء البسيطة تخصني.

تعلقت نظراتي بالقماش النظيف كما لو أنه نافذة تطل على حياة أخرى.

فتحت الكيس ببطء، أشم رائحة سوسن التي رتبتها بعناية.

تأملت البيجامتين وكأنهما وعد بالراحة، بالدفء، بشيء من الكرامة التي سلبت مني مع أول ليلة في المعتقل.

لامست بأصابعي القطن الناعم، فأحسست كأني ألمس الحنان ذاته.

شعرت أن هذه القطع ليست مجرد ثياب، بل رسالة صامتة تقول: أنت ما زلت إنسانا، وما زلت محبوبا.

حين ارتديت الملابس الجديدة، شعرت أن جسدي يتنفس، وأن جلدي يعود إلى الحياة.

وكأن في كل خيط منها دفعة أمل صغيرة، تبعثه من رماده، وتذكرني أن خلف الأسوار هناك من ينتظرني، ومن يفكر بي، ومن يغسل وجعي بالصبر.

جلست بعدها، أغمض عيني وأبتسم.

لم تكن ابتسامة فرح، بل امتنان عميق لأن قطعة قماش نظيفة أعادت لي شعور الإنسان الذي كدت أنساه.

الاغتسال والملابس النظيفة بعثا فيَّ مشاعر هادئةً أقرب إلى الرضا والارتياح.

شعرت أن ذهني أكثر صفاءً، وكنت أرى أن السياسة صناعة، وأن لها رجالها في اختصاص، وكنت على قناعة أن إنسانا يبحث عن منافذ لمساعدة المجتمع لن يكون بالضرورة من أولئك الرجال، مثل حالتي.

ولهذا لم أنخرط في أي نشاط سياسي، ولكني أرى اليوم أن السياسة هي التي تقود المجتمع إما إلى الخراب أو إلى البناء.

وما حصل من خصام دموي بين الصديقين قاسم وعارف شاهد على ما توصلت إليه.

كما أن السياسة قد تتضمن - أو بالأحرى تضم - رجالًا يستفيدون منها في التنفيس عن عقدهم النفسية، كما حصل معي، وأن يحيى واحدا من هؤلاء.

لهذا، السياسة شأن عام، والطبيب مثلي لا بد أن يكون له موقف.

أدهشني ما توصلت إليه، وشعرت أني بحاجة إلى كتابة ذلك لئلا أعود عنه.

لم يكن معي لا قلم ولا ورقة، فتذكرت أني قرأت مرةً أن السياسي الإيطالي (غرامشي) كتب بأظافره معظم آرائه على حائط الزنزانة.

لأكتب أنا...

بعد أكثر من ساعة لم أنجح بكتابة جملة واحدة، فيما تقصفت أظافري وشعرت بالألم.

الأيام تستنسخ بعضها كصفحات مكررة في كتاب فقد عنوانه.

لا شيء يتبدل سوى درجة العتمة، ورائحة الرطوبة التي تتشبث بجدران زنزانتي كذاكرة لا تريد أن تمحي.

الصمت هنا ليس غيابا للأصوات، بل حضورا خانقا لما لا يقال.

في الليل، يجيئني صراخ مفجوع يثقب سكون الجدران، فأرتجف دون أن أدري: أهو من الخارج أم من داخلي؟

أصغي إليه كما يصغي الغريق إلى نبضه الأخير، ثم أستسلم وأترك الليل يطوي صوته في الظلام.

كل صباح يأتي كنسخة باهتة من سابقه، يحمل ذات الضوء الضعيف، وذات الحلم المكسور عند حافة الذاكرة.

أعد أنفاسي كما يحصي السجين مواسم الغياب، وبودي أن أكتب على الجدار:

(ما يزال الوقت يمشي، لكني توقفت منذ زمن طويل)

كان صباحا نديا، شعرت بدفقة هواء أنعشتني حين فتح الحارس الباب ليعطيني وجبة الإفطار.

قلت:

- ما هو تاريخ اليوم؟

نظر إلي باستغراب وقال:

- أنت كثيرا ما تسأل عن التاريخ... هل حلمت بموعد مع الملائكة الزرق؟

- لا، ولكن من باب الفضول.

- ربما تنتظر أحدا... من يدري! اليوم هو السابع عشر من تشرين الثاني.

قلت في نفسي: لا أحد، ولكنني أنتظر أمرا...

راق لي كثيرا هذا التصور؛ لن ينقذني إلا أمر قد يقع، مادامت الصداقات عرضةً للتغيير.

حين جلست لتناول فطوري، توقفت لحظة، وشاعت ابتسامة على وجهي.

فكرت أني أنظر إلى الواقع السياسي مثل محللي الأخبار: عبد السلام لا يمكن أن يواصل المسيرة مع البعث الراغب في الاستيلاء على كامل السلطة، ولكن متى يبدأ الفراق؟ ثم كيف سيؤثر ذلك على وضعي، ما دامت التهمة المعلقة فوق رأسي أني شيوعي، على الرغم منه

كانت هناك حركة غير اعتيادية في النادي الأولمبي طوال الليل.

أصوات تتحدث بارتباك وبعجالة، وحركة صعود إلى سطح النادي، كانت الأحذية تضرب السلالم بقوة كما لو

كانوا يحملون أثقالا، كما سمعت توقف سيارات ثقيلة تصدر صوت احتكاك الإطارات بالأسفلت بسبب التوقف المفاجئ.

دار بخاطري أنهم ينشئون تحصينات ربما درءا لمخاطر متوقعة.

في الصباح، وعندما تسلمت الأفكار، كان الحارس مرتبكا، تبدو على ملامحه جدية خائفة، ولا يداري رجفة يديه.

- هل أنت مريض؟

- لا، وليتني كنت مريضا، لئلا يقع ما نخشاه.

- سلامتك، وأبعد الله كل مكروه.

- أنت رجل غاية في الطيبة، وأنا أرتاح كلما حدثتك.

ارتفع منسوب الشك عندي؛ فهذه اللغة غريبة تماما، ولم أسمعها طوال أشهر اعتقالي.

- لقد أقلقتني، ماذا سيحصل؟

قال: قوات الجيش تتحرك ضد الحرس القومي وقيادة الحزب.

على نحو مفاجئ، ارتفع من ذاكرتي ما قلته يوما: إني أنتظر أمرا... لكن

أغلق الباب بسرعة، وركض نحو الصالة، فقد بدأت زخات الرصاص المنطلقة من سطح النادي الأولمبي تسمع بوضوح في الزنزانة رقم ٣.

كانت مشاعر مختلطة تتقاذفني... إلى أين سيقود هذا الصراع؟

فتح الباب فجأة، وعلى غير عادته. كان شابا ربما في الثامنة عشرة من عمره، يرتدي الزي الرسمي للحرس القومي، لكن وجهه بدا شاحبا، كأنه ليمونة عصرت بقوة.

كان يحمل على كتفه رشاشا صغيرا أسود، وعلى خصره مسدساً أوتوماتيكياً، وحزاما من الرصاص، كأنه متوجه إلى معركة.

قال بصوت متوتر: دكتور، جميع المعتقلين مطلوب جمعهم في الصالة.

لفت انتباهي أنه للمرة الأولى منذ اعتقالي ينادى علي بصفتي الرسمية، وبشيء من الاحترام.

ارتديت ملابسي على عجل وتبعته.

في صالة النادي، كان هناك أحد عشر معتقلاً تقريبا، يجلسون على كراس موزعة على شكل دائرة.

دار أحد رجال الحرس بينهم، يحمل صينيةً عليها استكانات شاي يتصاعد منها البخار.

لم نتبادل الحديث؛ كنا نتطلع في وجوه بعضنا، نحاول أن نقرأ في العيون مقدار الألم.

بدت المجموعة منهكة الأجساد، شاحبة الوجوه، غائرة النظرات، كأنهم معتقلون في أقبية سرية منذ قرون.

كنا نشترك جميعا في شعور غامض بالشك، نخاف أن تكون خدعةً جديدة.

ومع ذلك، بدأ دفء غريب يتسرب إلى صدري، كأن إنسانيتي التي كادت تموت بدأت تتنفس من جديد، لكن ظل في داخلي وجع دفين.

كنا نترقب الخطوة التالية، إلى أن دوت رشقة رصاص أصابت واجهة النادي الأولمبي، فارتد الخوف إلينا من جديد.

قال أحد الحراس: ستخرجون من الباب الخلفي، وسيرافقكم اثنان من الحرس القومي لإيصالكم إلى معتقل آمن إلى أن ننهي أمر هذا التمرد.

كان أحد الحراس يحمل مذياعا يذيع بيانا عن سقوط المقر العام للحرس القومي واعتقال بعض أعضاء القيادة وهروب آخرين.

ارتسمت على وجوهنا علامات ارتياح حذر، وتبادلنا نظرات متواطئة لا تحتاج إلى كلام.

أشار إلينا الحارس بالتحرك، فرافقنا شابان من الحرس، واضح عليهما الخوف.

كان أحدهما في المقدمة، والآخر خلف المجموعة بخطوتين، وأنا أسير في آخرها.

انفتح الباب الخلفي على زقاق خال تمامًا من المارة، وعند الباب كانت تقف سيارة صغيرة تتسع لأحد عشر راكبا. كنا أربعة عشر مع الحارسين، فحُشرنا حشرا داخلها.

سلك السائق أزقة الأعظمية، ثم اتجه إلى الشارع العام المؤدي إلى حي الصليخ.

فوجئنا بالشارع مكتظا بسيارات شحن عسكرية تتقدم نحو مركز بغداد ببطء بسبب الزحام.

الجنود يلوحون للجماهير الواقفة على الجانبين، والناس ترد بفرح ظاهر، وأحيانا تمر شاحنات تحمل دبابات يجلس طاقمها على الجوانب.

أكثر من نصف ساعة ونحن لم نقطع سوى نصف كيلومتر واحد.

التفت أحد الحارسين نحونا وقال:

- أنا مضطر للمغادرة... أمي وحدها في البيت، وقد تسمع الأخبار، ولهذا علي أن أذهب.

لم نعلق، لكن السائق قال بهدوء:

- يمكنك ذلك، فقد تقلق عليك.

قال الحارس مترددًا:

- وماذا عن الرشاش؟

رد السائق مبتسما:

- اتركه عند رفيقك.

شعرت بالدهشة من برودة أعصاب السائق وعدم جديته في موقف كهذا.

قال الحارس الثاني:

- رفيقي محمد، الرشاش تحت المقعد.

غادر الحارس مسرعا وضاع في الزحام.

التفت السائق، وكان شابا في الثلاثين تقريبا، حنطي البشرة، وسيم الملامح، في عينيه نظرة ثابتة تنبئ بجرأة غريبة.

قال موجها كلامه إلى الحارس الآخر:

- رفيقي، أعتقد من أجل سلامتك يجب أن تغادر. الأجواء عدائية، سواء من العسكر أو من الجمهور، ولن يتركوكم وشأنكم، خصوصا وأنت ترتدي زي الحرس القومي.

التمعت عينا الحارس بخوف حاد وقال:

- ولكن كيف أغادر؟ ملابسي تفضحني، وهذا السلاح، ماذا أفعل به؟

قال السائق بعد تفكير قصير:

- حسنًا، السلاح تتركه عندي، والملابس يمكنك تغطيتها بجاكيت أحد الإخوة، ولا أظنهم يبخلون عليك بها.

بدا الحارس مترددا ومرتبكا.

- هل تعدني بإعادة السلاح إلى الحرس القومي؟ إنه مسجل باسمي.

- طبعا، أعدك.

ترك الرشاش والمسدس تحت المقعد، وارتدى الجاكيت على مضض، فقد كان أكبر من حجمه.

تحركنا باتجاه الصليخ، وعند التقاطع أشار جندي بإيقاف السيارة وهو يلوح ببندقيته:

- على اليمين، وأطفئ المحرك، لأن سرية الدبابات تتقدم إلى بغداد.

قال السائق بهدوء:

- شباب، يمكنكم المغادرة.

حتى تلك اللحظة كان كل شيء مربكا، ولم نتبادل أي كلمة.

تبادلنا نظرات متسائلةً، وبدأنا بالنزول.

تأخرت حائرا.

قال السائق مبتسما:

- وأنت يا ابن العم؟

قلت:

- لا أعرف إلى أين أذهب. كنت أسكن في مدينة الطب، وبعد اعتقالي شغل مكاني طبيب آخر.

التفت نحوي بدهشة وقال:

- هل أنت دكتور؟

- نعم.

- وأين أهلك؟ فقد أستطيع إيصالك إليهم.

- في الناصرية.

ضحك بخفة وقال:

- عطشان وأشربك ماي باثنين إيديه! لا أستطيع ذلك، المسافة بعيدة. لكن، ألديك أصدقاء هنا؟

قفز إلى ذهني اسم سوسن، وتذكرت أن أخاها باسل لم يكن متعاطفا مع البعث.

- نعم، لدي عائلة صديقة في الأعظمية.

- لا بأس، استرح، وعندما يفتح الطريق نعود.

- وماذا عن الأجرة؟

- لا عليك، ما حصلت عليه يعادل أجرة أسبوع كامل.

ثم أضاف وهو يبتسم:

- انتبه، فقد يوقفنا بعض رجال السيطرة الذين أنشئت نقاطهم على عجل، وقد يسألونك عن هويتك. هل تملك أي مستند رسمي؟

قلت بأسف:

- لا، فقد جردت منها أول يوم لاعتقالي.

- هل أنت شيوعي؟

- لا.

صمت السائق لحظةً، ثم قال:

- حسنا، إذا سئلت عن الهوية فقل إنك كنت في عجلة لاستئجار سيارة لنقل زوجتك التي فاجأها الطلق إلى المستشفى... فكرة مدهشة، أليس كذلك؟

ثم ضحك وأضاف:

- السواق أيضا مفكرون.

الفصل الثاني عشر

عند الباب قال السائق:

- تفضل، دكتور.

كنت كمن يعيش في حلم لا يصدق... أنا حر

لكن إلى متى؟

كل شيء متوقف على طرد الحرس القومي من الشوارع، وعلى انتهاء نفوذ يحيى في التأثير على السلطة.

نزلت من السيارة، فاستدار السائق وهو يلوح لي بيده. قبل أن أضغط على زر الجرس، التفت في كل الاتجاهات. لم يكن هناك أثر لأي من رجال الحرس القومي، والشارع خال تماما.

كنت مرتابا؛ فبعد شهور السجن الانفرادي والوحدة والوجع، لم أعد قادرا على التواصل حتى مع أعدائي.

كان الصمت يلف المنطقة، وكأن الجميع أغلقوا أبوابهم بانتظار ما سيقع. من بعيد سمعت طلقات متفرقة... لقد انتهى عهد الحرس القومي.

شعرت براحة غامرة دفعتني لأن أضغط على الجرس.

سمعت صوت باسل من خلف الباب الداخلي:

- من؟

أنا... الدكتور جواد.

- جواد؟

- نعم، ابن الشيخ عبد السلام.

كان باسل يقف خلف الباب الداخلي المفتوح قليلاً، وصوته مشحون بتوتر ممزوج بالقلق. لم يذهب إلى العمل، فذلك اليوم كان الثامن عشر من تشرين الثاني، كان واحدا من الأيام العصيبة التي مرت على بغداد بعد البيان الرسمي الذي أذاعته الإذاعة والتلفاز:

إطلاق الرصاص الحي والمباشر على أية مجموعة من الحرس القومي ترفض الاستسلام وتسليم أسلحتها للقوات المسلحة.

تقدم باسل بتردد وفتح الباب الخارجي.

- هل أنت بمفردك؟

- نعم، لا أحد معي.

تجاوزني بنظره نحو الطريق، ثم قال:

- أهلاً، دكتور.

لاحظت أن طريقة استقباله كانت باردة، لكنه سرعان ما أمسك بكلتا يدي وجذبني إليه.

كانت سوسن تقف على عتبة الباب الداخلي، ترتدي جلابية بيضاء تلامس كاحليها، وبأكمام حتى المعصمين.

ما إن رأتني حتى باغتها البكاء، شبكت يديها إلى صدرها وتقدمت نحوي بخطوات مترددة. لم تتكلم، فقد كان نشيجها يأخذ منها الكلام. أمسكت بيدي وقادتني إلى الداخل.

شعرت بحرارة كفها، وببقايا دموع لم تجف بعد.

وقفت على العتبة متجمدا بين ماض أغلقوه علي خلف القضبان، وحاضر أتنفس فيه الهواء لأول مرة دون إذن من أحد.

رأيتها...

كم ليلةً تخيلت هذا اللقاء وأنا على الإسمنت البارد، أحادث الجدران عن عينيها، عن وعد لم يخمد على الرغم من العتمة.

الآن كل شيء أمامي حقيقة

الضوء المتسلل من النافذة، رائحة القهوة التي لم تبرد بعد، صدى اسمي على شفتيها المرتجفتين

فقدت القدرة على الكلام. الكلمات خانتني كما خانتني الأيام من قبل.

وقفت وسط الغرفة كأنني أخشى أن تفر اللحظة مني، ثم ابتسمت ابتسامةً متعبة... ابتسامة رجل خرج من ليل طويل إلى نهار مشع بالبكاء.

كانت غرفة الاستقبال تضج بفرحة ممزوجة بالدهشة. وقفت أمها مرتبكة وهي ترى ابنتها موزعة بين الفرح والخوف.

حين جلست، أحسست أني فعلاً حر. بدأ جسدي يسترخي وأنا أحتسي فنجان القهوة الساخن. كنت أعشقها هكذا، تغلي بين أصابعي، على الرغم من تحذيرات أمي الدائمة.

قالت أم سوسن:

- كان يحيى يطمئننا عليك دائما.

شعرت بأن كل العذابات التي مرت بي تتشبث بي من جديد.

- يحيى هو بلوتي وبلائي، قلتها بمرارة.

لم تفهم، فالتفتت إلى باسل.

قال باسل:

- ماما، الدكتور جواد يقول إن سبب اعتقاله هو يحيى.

شهقت الأم، وفي عينيها صدمة.

- كيف؟

- كان يحيى يترأس اللجنة التحقيقية.

قال باسل سريعا:

- لاحقا نناقش كل هذا، الآن علينا أن نبحث عن مكان آمن تحسبا للطوارئ.

قالت بهدوء:

- سأذهب إلى الناصرية هذا المساء... بالقطار، فالتدقيق هناك أقل.

قال باسل:

- يمكنني أن أرتب لك حجزا في الدرجة الأولى، فابن مدير الحسابات عندنا يعمل في مكتب قطع التذاكر.

قالت سوسن برجاء خافت

- لا أجد داعيا للاستعجال، يمكن أن نؤجل الموضوع إلى الغد.

كانت نبرتها ترجي أكثر مما تقترح، كأنها تريد أن تقول إنها لم تشبع من رؤيتي بعد.

ثم قالت:

- هل يمكن أن أرافقك إلى الناصرية؟ لست مطمئنة! التدقيق أقل حين يكون المسافر مع عائلته.

قالت أمها بحزم:

- قطعا لا.

قال باسل وهو ينهض:

- تم حجز غرفة في الدرجة الأولى.

قالت سوسن:

آسفة، نسيت أن أخبرك أني جمعت كل حاجياتك من الغرفة في المستشفى، ومن ضمنها الهوية التي تحمل عنوان طبيب تحت التدريب. أظنها كافية.

قالت بتأثر:

- أعجز عن شكركم جميعا.

قال باسل:

- يمكنك الآن أن تأخذ حماما ساخنا، وأن تحلق لحيتك، على الرغم من أنها تزيدك مهابة.

قالت سوسن مبتسمة:

- البذلة الزرقاء والقمصان والبيجامة الجديدة التي وجدتها في غرفتك عندي.

قال جواد

- هل يمكنني الاتصال بعمي في الناصرية لينتظرني في محطة أور؟

قالت سوسن:

- الأفضل أن أتصل به.

في طريقهم إلى المحطة العالمية، جلس باسل خلف المقود، يتفحص المرايا بقلق، يشك أن الحرس القومي لم يهزم تماما، وأن التحالفات قد تتغير في أية لحظة.

أما سوسن التي جلست في المقعد الخلفي فكانت شاردة، تغمض عينيها أحيانا، وكأنها تريد أن تحتفظ في ذاكرتها بصورة هذا اللقاء الذي كان حتى الأمس مستحيلاً.

عند مدخل المحطة، في بداية الممر المؤدي إلى القطار المتجه إلى البصرة، جلس شرطي على كرسي حديدي وأمامه منضدة خشبية.

أخذ يراجع التذاكر أولًا، ثم الهويات.

ناوله جواد هويته، فتطلع فيها على عجل ثم قال بابتسامة خفيفة:

- تفضل، دكتور.

لوح له باسل وأرسلت سوسن قبلة، وهو يصعد العربة واجهه المسؤول عن خدمة الركاب

- التذكرة أستاذ لأرشدك الى غرفتك

سلمه التذكرة وخمس دنانير ،كانت ردة الفعل تكشف عن دهشة واستغراب وظل فرح برزق غير متوقع

- اهلا أستاذ ،انا المسؤول عن خدمتك... .عشاء خاص ،بيرة مثلجة

- شكرا... لا هذا ولا ذاك... أشعر بنعاس شديد، أرجو إعلامي حين نصل اور

- بكل ممنونية

ما إن أطلق القطار صافرة التحرك حتى شعرت باني نعسا، ارتميت على السرير بكامل ملابسي، كانت الشراشف البيضاء نظيفة، رددت الحرية ترف لا نقدره لحظات على تحرك القطار كان هناك طرقا على الباب

- أستاذ هل أنت مرتاح للفراش؟ يمكن أن أبدله فورا

- لا حاجة شكرا اشعر بالنعاس.. .تصبح على خير

حوالي الثانية عشر ليلا كان هناك طرقا شديدا على الباب

- أستاذ نحن في اور والقطار على وشك المغادرة

- شكرا

حمل حقيبته الصغيرة ونزل

على الرصيف كان عمه عبد الكريم بطوله الفارع يلتف حوله اكثر من عشرين شخصا

تقدم عمه عيناه مغرورقتان واحتضنه

- أهلا بشيخ آل هيّال

شعر بان فيما سمعه يكمن شيئا لا يرغب بمعرفته

في السيارة التي كان وراؤها رتلا من سيارات المستقبلين

- عمي هل حصل مكروه لابي

- البقية في حياتك

حينما كلمتني سوسن قلت لها أن أبي قد توفي ولهذا قد أضطر إلى البقاء بضعة أيام قالت :اعرف ذلك...:كنت أتواصل مع عمك واخبرني

في قرية آل هيّال كان الاستقبال حافلا...الأعلام العراقية وعلم آل هيّال الذي صمه جدي الشيخ سلطان... معلمو المدرسة الابتدائية والملا مهودر يقف حزينا وهو يغالب دمعه.. أطفال القرية تعلوا وجوههم ابتسامة عريضة... فكرت بأنهم يعتقدون أني بطل حارب سلطة بغداد، في قرارتي شعرت بالإحراج،

في الوليمة الكبيرة التي حضرها كامل رجال آل هيّال والشيخ عيادة وثلاثة من أولاده

قال عمه- لابد أن نعلن عن الشيخ لآل هيّال، من جانبي أنا أتنازل عنها لابن أخي الدكتور جواد فهو أول طبيب فينا وأول سياسي ونحن نعرفه

شعر جواد انه فوجئ بما لم يكن في مخططاته

- أشكر عمي وأشكركم ولكني أعتذر وأرى أن ابن عمي، جبر مناسب تماما فهو الذي تنطبق عليه شروط جدنا هيّال

بعد مناقشات تم ذلك

يعتقد جواد بأنَّ هذا الإجراء سيسهل عليه تحقيق حلمه بالالتحاق بجامعة لندن مصطحبا سوسن ليؤسس لحياة جديدة ليس فقط من اجل نصر شخصي وإنَّما ليعمل في مجال يخدم به الناس الذين أحبهم.

الفصل الثالث عشر

كنت أدرس خطواتي بعناية، وأحاول جاهدا أن أضع الحلول التي أراها مناسبةً على ضوء ما يجري من تطورات متلاحقة.

فبعد إلحاق الهزيمة بحزب البعث، وانتهاء سيطرة الحرس القومي على السلطة والتحكم في كافة مفاصل الحياة ومرافق الحكومة، أصبحت الفرصة لمغادرة العراق أكثر يسرا.

قلت لعمي ونحن على مائدة العشاء في بيتهم:

أرغب أن أحصل على جواز سفر، فهل لديك معارف في دائرة جوازات الناصرية؟

نظر نحوي وكأنه فوجئ.

قال: نعم، ابن أخ خالتك أم حمزة يعمل مفوضا في دائرة الجوازات.

حينما ذهبنا في اليوم التالي، كانت الدائرة مكتظةً بالمراجعين على نحو لم أكن أتوقعه.

قال عمي للرجل عند الباب

أبو إسماعيل، هل يمكنك أن تخبر المفوض مجيدا أن عمه عبد الكريم يريده؟

نظر إليه الرجل بشيء من التعالي وقال بلهجة باردة

- لا أعتقد أنه يتمكن من الخروج... ألا تشاهد الزحام؟

قال عمي بحزم:

- سنعود غدا.

كانت الجملة التي نطقها حازمةً، بحيث لم تترك مجال للمناقشة.

قال بعد قليل: كان يجب أن أتصل به وأرتب الزيارة.

وفي المساء قال: سأذهب إلى بيت مجيد لترتيب الموضوع

في صباح اليوم التالي، ذهبنا إلى بيت المفوض مجيد.

استقبلنا وهو يرتدي جلابيةً بيضاء تبرز كرشه المتقدم، ورحب بنا بحفاوة مبالغ فيها.

وحين عرض عليه عمي الموضوع، بعد أن قدمني له، قال مجيد:

- بسيطة... مشكلة واحدة فقط تعترضنا. فالدكتور موظف، ويفترض أن يبرز موافقة المستشفى الذي يعمل به.

قلت: أنا الآن خارج العمل، فقد فصلت بسبب غيابي أكثر من سبعة أيام.

قال وهو يبتسم: حسنا... أمر آخر.

تطلع عمي نحوه باستغراب، فقال المفوض مازحا

- لا عليك، الأمر الآخر سهل... وجبة كباب لي وللضابط أبو أيمن.

ضحك عمي وقال ممازحا:

- ولمدير الجوازات أيضا؟

ضحك الجميع، ثم ونحن ننصرف قال مجيد:

- كل شيء سيكون جاهزا غدا بإذن الله.

أمسكت بجواز السفر بيد مرتجفة، وكأني ألمس وعدا بالخلاص.

لم يكن مجرد دفتر صغير، بل حياةً مؤجلةً وسماءً تنتظرني منذ زمن.

اختلطت في صدري رعشة الفرح بمرارة الفقد، كأن كل صفحة فيه تحمل وجوه من سأتركهم خلفي.

كان قلبي يسافر قبل جسدي، يتنقل بين الشوق والذنب، بين الأمل والخذلان.

وفي عيني بريق نجاة خافت، يشبه ضوءً بعيدا في آخر ليل طويل.

كأن العالم أخيرا فتح لي نافذةً بعد طول اختناق.

من نوبة الفرح التي دهمتني فجأةً، قبلت عمي وقلت له بامتنان:

- لن أنسى أنك ساهمت في صنع مستقبلي.

اتصلت بسوسن لأبشرها بأننا نضع أقدامنا على أول الطريق.

قلت لها: اعملي جهدك في الحصول على جواز السفر، لأننا سنغادر بأقرب فرصة.

قالت ضاحكةً: لا أعرف أن أزغرد! مبارك... جوازي جاهز. لا تنس أن تحافظ على موافقة جامعة لندن، فالسفارة ستطلبها للفيزا. ستفرح أمي على الرغم من أنه يعز عليها أن أفارقها. لقد أعلمتها أننا سنأتي كل عطلة... لكن يتبقى موضوع مهم، هل نتحدث به الآن أم حين تحضر إلى بغداد؟

قلت متوجسا: «لقد أقلقتني... ما هو الموضوع؟-

قالت بصوت متردد: «يؤسفني طرح الموضوع في ظل ظروفك المعقدة.

قلت: لا بأس، لقد أثرت فضولي.

قالت بهدوء: موضوع زواجنا.

شعرت بارتياح، على الرغم من أن موضوع الزواج لم يخطر ببالي.

قلت: حسنا، ماذا عن زواجنا؟

قالت: «هل نذهب إلى لندن كمخطوبين؟

قلت: لا... رأيي أن نذهب كزوجين. سأكون في بغداد بعد عشرة أيام، لأني أرغب في ترتيب الأمور المالية لدراستنا ومصاريفنا في لندن. عند حضوري، وبعد الحصول على الفيزا البريطانية، نقوم بإجراءات الزواج، وأترك لك تنظيم التفاصيل. تعلمين، هذا هو حلمي الأكبر.

ساد صمت للحظات، ثم قلت:

سوسن، هل أنت على الخط؟

قالت بصوت مبحوح: "نعم."

شعرت أنها كانت تبكي، فتابعت:

- سأنتظر مجيئك، ولكني سأخبر العائلة.

جرت الأمور بسرعة ويسر.

رتبت أولًا مع عمي وعدد من أبناء العائلة أن يرسلوا حوالات ماليةً باسمي، لضمان توفر ما يكفي من المبالغ، بعد أن فتحت حسابا في بنك بريطاني. كما حولت أكثر من ألفي دينار إلى العملة البريطانية، لتكون معنا، وكذلك ما يكفي لمصاريف العرس في بغداد.

كانت أمي بادية الحزن لفراقي، وعلى الرغم من ضعف نظرها، كانت لا تنفك تحدق بي بوله حين أكلمها عن سفري.

حين أدخل عليها في غرفتها التي تلازمها طوال النهار، كنت أراها قرب النافذة، تحدق في الأفق البعيد، كأنها تبحث بين الغيوم عن ملامحي.

ما زالت تصغي إلى صدى خطواتي الأخيرة في البيت، يهمس في أرجائه.

وحين وقفت أقبلها للمرة الأخيرة، بينما أبو شاكر يزمر لي كي أستعجل، قالت وهي تغالب دموعها:

- سعيد... وعني بعيد.

في بغداد، لم أتوقع أن أنجز كل مهامي بهذه السرعة.

القسم القنصلي في السفارة البريطانية ختم الفيزا على الجوازين في أقل من ساعة، وتمنى لنا القنصل الشاب وهو يبتسم النجاح في دراستنا.

قمنا بتنظيم حفلة زواج عائلية على نطاق ضيق، وتم ختم عقد الزواج في المحكمة.

وفي الطريق إلى المطار، رافقنا باسل، الذي كان يتمتع بعلاقات واسعة حتى في مطار المثنى

أدهشتني تلك السهولة، ونحن نربط الأحزمة داخل الطائرة.

قالت سوسن وهي تبتسم بارتياح:

- الآن فقط أشعر أننا نجحنا في السفر.

ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة، شع في عينيها بريق لامع، يعبر عن بهجة لا حدود لها، وضغطت على يدي قائلةً:

لن نسمع بيحيى بعد اليوم، ولا بالحرس القومي. سيكون كل ذلك ذكريات نرويها لأولادنا.

قلت مبتسما:

- كم سيكون جدي هلال فرحا، وهو يتسلى مع أولادنا. سنواصل بناء العائلة الكبيرة التي رغب فيها، ولكن على نحو آخر.

مساء حصولنا على نتيجة الدكتوراه، قررنا أن نسهر بمشاهدة مسرحية إنكليزية كانت مثار اهتمامنا وحديث الطلاب، وهي (الطبقة الحاكمة).

كانت تسخر من النظام البريطاني وتناصر الطبقة الوسطى، ثم نذهب بعدها إلى مطعم «لا روشيه» الفاخر.

اعترضت سوسن على فكرة المطعم، لأنه مكلف ولا ضرورة لذلك، سيما ونحن نعود إلى العراق وعلينا الاقتصاد.

قلت لها مبتسما:

- هذا بالضبط ما يدفعنا لأن نتمتع بآخر أيامنا في لندن

في الأيام الثلاثة التي سبقت عودتنا، قامت سوسن بشراء الهدايا، وكان من نصيب سهيل، ابن باسل، الحصة الأكبر.

قالت سوسن بحماسة:

- نعود عبر إسطنبول، لأن في نفسي رغبةً في زيارة جزيرة الأميرات، فقد كانت أمي تحدثنا عن بيت جدي هناك

قلت: هل تكفي أربعة أيام؟

قالت: أسبوع...نحن بحاجة الى راحة تسبق ما ينتظرنا في بغداد من عمل، متابعة تصديق الشهادات إلى البحث عن مستشفى مناسب

قلت ساخرا: «أسبوع لا بأس، أما متابعة التصديق فنعم، لكن اختيار المستشفى ترف لا يتوفر في العراق

في إسطنبول، كان الفندق في مدخل جادة الاستقلال، قريبا من مراكز التسوق. وكان عادةً مزدحما بالسائحين.

في اليوم الثاني، قمنا بالحجز لرحلة نهارية إلى جزيرة الأميرات.

تناولنا الفطور على عجل، وعند باب الفندق كان كشك لبيع الصحف.

وقف أكثر من عشرة أشخاص يشترون جريدة الصباح التركية، التي تصدرت صفحتها الأولى بالخط العريض:

I HTILAJT BAGHDAD

أمسكت بيد سوسن، فالتفتت نحوي مستفسرةً.

قلت بقلق: من احتل بغداد؟

بدت مستغربةً، ظنت أني أمزح.

اشتريت الجريدة، بينما البائع ينظر إلي باستغراب.

قلت لها: قد نجد أحدا في الباخرة يترجم لنا ما حصل

بعد أن استقرينا داخل الباخرة، بدأت أبحث عن شخص يجيد الإنكليزية، ليترجم لي ما في الجريدة.

كان أمامي شاب تركي يمسك بمظلة وكتاب، فظننته ضالتي. تقدمت منه وسألته بالإنكليزية:

- هل يمكنك أن تترجم لي هذا العنوان؟

رفع رأسه ناحيتي، تطلع في الجريدة، وقال:

- إنها تقول: هناك انقلاب في بغداد.

قلت متسائلًا بذهول: ولكن، هل من أسماء؟

قال: لا، لكني سمعت من الـ(بي بي سي) أن قائد الانقلاب يدعى أحمد حسن البكر.

تجمدت في مكاني، كأن الكلمات خنجر غرس في صدري.

نظرت إلى سوسن، فشهقت بصوت خافت، ثم قالت

- مستحيل! كيف؟ متى؟

لم أستطع أن أجيبها.

كان صخب المحرك يملأ الباخرة، لكني لم أسمع شيئا.

تلاشت الأصوات، غاب البحر، وذابت الوجوه.

كل ما سمعته كان نداءً بعيدًا، يخرج من عمق القلب...

جلسنا صامتين، والمطر ينهمر على زجاج النوافذ، كأنه يشاركنا البكاء.

فتحت الجريدة أبحث عن سطور أخرى توضح الخبر، فكانت الحروف تلتهم بعضها، كأنها نار تشتعل في الورق.

كل شيء من حولنا فقد لونه؛ البحر الرمادي ازداد رمادًا، والسماء بدت كأنها ترتدي كفنًا من الغيم.

همست سوسن بصوت مرتجف:

- هل نعود فورا؟

قلت: إلى أين؟ إلى مدينة أغلقت بواباتها بالنار؟

بقيت تنظر إلى الأفق، ثم قالت بإصرار خافت

- سنعود... ولو على الرماد.

كانت السفينة تمخر الماء ببطء، والمدينة خلفنا تبتعد شيئا فشيئا.

مددت يدي إليها، فوضعت كفها فوق كفي، وقالت بصوت خافت كالدعاء

- سيشفى الوطن يوما، كما تلتئم الجروح.

أطرقت برأسي، وابتسمت بحزن، وأنا أستعيد عنوان رسالتي القديمة:

"التئام الجروح باستخدام الخلايا الجذعية".

تساءلت في نفسي:

أترى، هل يمكن أن نزرع في وطن مثخن بالجراح، خلايا من أمل تعيد إليه الحياة؟

وبينما كانت السفينة تقترب من جزيرة الأميرات، كان في داخلي بحر آخر لا يهدأ...

بحر من الحنين، ومن الوطن.

في الفندق، طلبت سوسن القهوة بصوت خافت، بينما كنت أحدق في النافذة التي ظل المطر يقرع زجاجها كأنه يذكرنا بالرحيل.

قالت وهي تضع الفنجان أمامي:

- والآن... ما هو الموضوع؟

قلت بصوت مثقل بالدهشة والخذلان:

- عاد البعث إلى السلطة.

توقفت عن شرب القهوة، ووضعت الفنجان على الطاولة بارتباك واضح.

قالت بعد لحظة صمت طويلة:- لقد فهمت...

ثم تابعت بصوت خافت

- والآن؟

نظرت إليها طويلاً، ثم قلت ببطء:

- ما تقررينه أنت... لدينا خياران.

قالت بهدوء حازم:

- أعتقد أن من الأفضل العودة إلى إنكلترا والعمل في مستشفى الكلية. ولكن... ماذا تفعل بكل ما اشتريناه؟

قلت وأنا أتنفس بعمق:- غدًا أبعثه بالبريد إلى أخيك باسل.

ذياب فهد الطائي

المؤلفات المنشورة

البترول في الخليج العربي "جزأين" بغداد ١٩٦٧

النفط بين التأميم والمشاركة، بغداد ١٩٦٨

تنفيق الريع ،دمشق ١٩٧٠

الصبار الأورق "رواية" مكتبة خالد بغداد ٢٠٠٤

ورد الدفلى "رواية" :مكتبة خالد بغداد ٢٠٠٥

ضوء بلا ظل "رواية"، مطبعة هيثم بغداد ٢٠٠٦

تاريخ الصحافة في البصرة من ١٨٨٩ لغاية ٢٠٠٩ دار الينابيع للطباعة والنشر دمشق ٢٠١٠

التضليل الإعلامي من صناعة الخبر الى صناعة السينما- دار الينابيع للطباعة والنشر دمشق ٢٠١١

حديث في الممكن "رواية" دار أمل الجديدة دمشق ٢٠١٤

ضفاف أخرى "رواية" فازت بالجائزة الثانية لمسابقة وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠١٢ وصدرت عن دائرة الشؤون الثقافية عام ٢٠١٥

الأشباح والأمكنة "رواية" دار امل الجديدة دمشق ٢٠١٥

الصحافة اليسارية في العراق من ١٩٢٤ لغاية ٢٠٠٣ دار امل الجديدة دمشق ٢٠١٥

الصحافة النسائية في العراق من ١٩٢٤لغاية ٢٠١١ دار امل الجديدة دمشق ٢٠١٦

حكاية السيدة داني "رواية" مكتبة الطليعة العلمية عمان ٢٠١٧

من حي الزنجيلي الى حي النصر "رواية" مكتبة الطليعة العلمية - عمان ٢٠١٨

مقاربات في المنجز الشعري للشاعر الإماراتي حبيب الصايغ - دار غيداء للطباعة والنشر - عمان ٢٠١٨

أثر الأزمات المالية على النظام الاقتصادي العالمي - دار غيداء للطباعة والنشر - عمان ٢٠١٩

دائرة النسيان "رواية" مكتبة الطليعة العلمية - عمان ٢٠١٩ الرواية فازت بالجائزة الثالثة للإبداع الروائي في العراق

الطريق الى أمستردام "رواية" دار جهينة - عمان ٢٠٢١

وادي الأرواح "رواية" دار ما بين النهرين - عمان ٢٠٢٣، تم ترجمتها الى اللغة الإنكليزية وصدرت عن دار اكوان - القاهرة

ضوء "رواية" دار جهينة - عمان ٢٠٢٤

نضال النساء في مجال الصحافة والفلسفة - دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع - عمان ٢٠٢٤

ثلاث أصوات من البصرة، دار السرد الروائي ،بغداد ٢٠٢٥

هروب الى الغرق/ نصوص حرة/ دار السرد الروائي - بغداد ٢٠٢٥